مكتبة

مداد
Medad Publishing & Distribution
الحائزة على أفضل دار نشر محلية

رواية

شقة زبيدة

عبدالله النعيمي

شقة زبيدة

اسم الكتاب: شقة زبيدة
المؤلف: عبدالله النعيمي
تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: مداد للنشر والتوزيع
الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-24-671-8
الطبعة الأولى: 2019
التصنيف العمري: E

تمت الموافقة على الكتاب من قِبل المجلس الوطني للإعلام
بدولة الإمارات العربية المتحدة.
رقم إذن الطباعة: MC-10-01- 0045668

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة
t.me/soramnqraa

مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution
الجائزة على أفضل دار نشر محلية
Medad Publishing & Distribution
دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي

@medadpublishing
@medadpublishing
medadpublishing

www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com

جميع ما ورد في محتوى الكتاب يعبّر عن آراء الكاتب، ولا يعبّر عن
رأي مداد للنشر والتوزيع

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا
لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

رواية

شقة زبيدة

مكتبة
t.me/soramnqraa

عبدالله النعيمي

إهداء

إلى أصدقائي التسعة الذين عارضوا معظم أفكاري

لكنهم لم يجعلوا منها سبباً للخلاف!

أحداث هذه الرواية تدور في شقة، وهذه الشقة تقع في الطابق الثالث من عمارة كبيرة، وهذه العمارة الكبيرة تقع في حي شعبي فقير ومنكوب، وهذا الحي الشعبي الفقير والمنكوب يمكن أن تجده في أماكن كثيرة من العالم.. ولا يجوز بأي حال ربطه بمكان معين، وزمان محدد.. وعليه لزم التنويه.

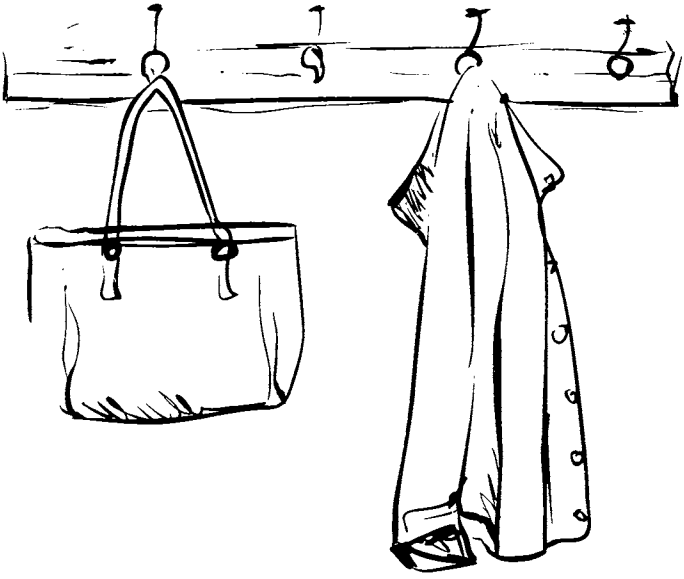

قبل الدخول

اِنزعوا أفكاركم المسبقة..

وعلقوها على المشاجب..

خلف الباب!

يتهاوى كبرياء الجميلات أمام الرجال المشرقين من الداخل.

عبدالله النعيمي

فتاة تستغيث

ما كنتُ أنوي مغادرة الشقة في تلك الساعة المتأخرة من الليل.. لكن انقطاع الكهرباء، والصراخ المريب الذي أسمعه من حين لآخر، دفعاني إلى الفرار منها على وجه السرعة.

أغلقتُ الباب ورائي، وما لبثتُ أن رأيت باب الشقة المجاورة الذي ظل مغلقاً طوال الساعات الماضية ينفتح فجأة، وتندفع من ورائه فتاة بيضاء شبه عارية.. حاولَتْ أن تمد يدها طلباً للمساعدة، لكنَّ يداً أخرى عنيفة جذبتها بقوة إلى الداخل، ويداً أخرى امتدت لتكتم صوتها، وأنفاسها حتى لا يصل صراخها إلى مدى أبعد.

في هذه اللحظة الرهيبة، ووسط ظلام حالك لا تُبدِّده سوى إنارة هاتفي المحمول.. أُسقط في يدي، ولم أعرف ماذا أفعل؟ هل أكمل طريقي، وأهبط عبر السلالم إلى خارج العمارة.. أم أهبُّ لنجدة الفتاة المستغيثة.. أم أتصل بالشرطة.. أم أعود إلى شقتي وأقفل الباب على نفسي.. أم أطرق أبواب الشقق

القريبة لأخبر سكانها بما رأيت، وأطلب مشورتهم..؟ تذكرت البواب أيوب، فهرعت إليه.. ولم أنتبه لنفسي إلا وأنا أقف أمام غرفته في الطابق الأرضي.. طرقت على بابه مرتين.. ثم ناديت بصوتٍ خفيضٍ:

- أيوب.. أيوب.. افتح.. ثمة جريمة تحدث في الأعلى!

جاءني صوته من الخلف واثقاً.. قوياً:

- لا يحدث شيء.. اطمئن!

كاد قلبي يسقط من مكانه وأنا أشعر بهواء فمه يلامس أذني.. تحركت بسرعة.. فارتطم مرفقي الأيسر بقائم الباب.. لكن من شدة الخوف لم أشعر بأي ألم.. التفت إلى مصدر الصوت، وأنا أسند ظهري كاملاً إلى الباب الخشبي المهترئ.. فتبدَّى لي أيوب بثوبه الأزرق القاتم، وسترته الصفراء البالية.. "لعنك الله".. قلت في نفسي، وأنا أحاول التقاط أنفاسي.. فارتسمت على فمه ابتسامة غير مريحة، وأردف سائلاً:

- ماذا رأيت؟

بنَفَسٍ مقطوع.. أجبت:

- امرأة شبه عارية تستغيث!

- أين؟

- في الشقة المجاورة لشقتي!

رد بنبرة غير مبالية:

- شقة زبيدة؟

استعدت المشهد الرهيب في ذاكرتي، وأجبت:

- لا أعرف شقة من!

قال وهو يتجاوزني ليفتح الباب:

- لا عليك، إنها تكسب رزقها بهذه الطريقة!

صحت:

- إنها تستغيث!

ردَّ قبل أن يصفق الباب في وجهي:

- لن يحدث شيء.. لا تقلق!

صفق الباب، وبقيت وحدي في الظلام لا أعرف كيف أتصرف!

لا أحد يدخل هذه العمارة المريبة، ولا أحد يخرج.. لا ضجيج أطفال، ولا خطوات عجائز.. كل شيء صامت، ومستقر

في مكانه، وكأني في مقبرة.. رغم أنها عمارة كبيرة، والجميع يعرفها.. البقال، وعامل المطعم، وسائق التاكسي، وبائع الفاكهة.. بمجرد أن أعطيهم العنوان، يفغرون أفواههم في ذهول، ويقولون: "عمارة زبيدة"!

خطرت في بالي فكرة.. بدت كأنها الخيار الوحيد المتاح أمامي في هذه اللحظة.. ما زال حجزي في فندق المدينة قائماً، وسيبقى كذلك طوال مدة الرحلة.. ويبدو أن فكرة الانتقال إلى شقة في حي شعبي لم تكن موفقة، ولن تحقق الغرض منها.. إذن لا مناص من مغادرة الشقة فوراً، والعودة سريعاً إلى الفندق.

صعدت بسرعة إلى الشقة، وعندما شارفت على الوصول للطابق الثالث.. تمهلت في خطواتي قليلاً، حتى توقفت تماماً عند الدرجة الأخيرة.. وجهت مصباح الهاتف نحو الشقة التي اندفعت منها الفتاة، فوجدت بابها مغلقاً.. تقدمت بخطوات حذرة، حتى وصلت إلى باب شقتي.. وضعت المفتاح في فتحة القفل، وأدرت المقبض.. أحسست بسائل لزج يلتصق في يدي، رائحته غريبة ومقززة.. أسقطت ضوء الهاتف على

المقبض.. فرأيته ملطخاً بالدماء.. نظرت إلى كفي بفزع، فرأيتها ملطخة كذلك.. انتفضت في مكاني، وكتمت صرخة كادت أن تنفلت من فمي.. استوقفني نور خافت، وصوت خرير ماء.. فتحت الباب أكثر لأستوضح الأمر.. ازداد النور وهجاً، وارتفع الصوت.. دلفت أكثر إلى الداخل.. رأيت باب الحمام مفتوحاً، وفتاة بيضاء، طويلة، تسكب الماء على رسغها.. شخصَ بصري، وانعقد لساني من الدهشة.

التفتَتْ نحوي، وقالت:

- أحتاج إلى ضمادة!

لم يكن وجهها غريباً عني، فهي الفتاة نفسها التي رأيتُها تستغيث قبل قليل.. لكنها الآن ترتدي قميصاً رجالياً واسعاً عليها.. يستر نصفها الأعلى فقط، فيما ينكشف نصفها الأسفل بالكامل.. وقع بصري على حوض المغسلة، فوجدت الدماء تنسكب مع الماء فيه.

سألتها:

- كيف دخلتِ إلى هنا؟

- لدي مفاتيح كل الشقق!

- بصفتك ماذا؟

- مسؤولة الخدمات في العمارة.

- أي خدمات؟

تغيرت ملامحها، وقالت بضيق:

- أووووه.. أنا مريضة بالسكر، والنزيف لن يتوقف من دون ضمادة!

بعد تفكير قصير، قلت:

- سأتصل بالشرطة!

ردَّت وهي تضغط فوق الجرح:

- إذا أردت أن تخلق مشكلة كبيرة من لا شيء.. فاتصل!

انتبهت إلى لون القميص، والكلام المكتوب عليه.. وقبل أن أنطق بكلمة استدركَتْ قائلة:

- وجدته مرمياً على الأريكة، ولبسته.. المعذرة منك، لم يكن أمامي خيار آخر!

تذكرت نصيحة صديقتي غادة عندما أخبرتها بفكرة السفر إلى هذه المدينة، والإقامة في هذا الحي المشبوه: "إياك أن تفعلها،

فأنت لا تعرف ما يمكن أن يحدث لك هناك".. سألتها بدهشة: "وماذا يمكن أن يحدث؟".. أجابت: "قد تدخل في دائرة جهنمية، لا تعرف كيف تخرج منها!".

لم آخذ تحذيرها على محمل الجد يومها، وقلت لها مُعاتباً: "تتكلمين وكأني مراهق يخوض تجربته الأولى في السفر".

سألت نفسي، وأنا أتأمل الفتاة المتسللة من مكان وقوفي.. شعرها الكثيف، قوامها الممشوق، نهديها النابتين: "هل يمكن أن تكون بائعة هوى؟".. المشهد الرهيب الذي رأيته قبل قليل، وكلام أيوب، والمظهر الذي أراها عليه الآن، كل ذلك يقول بوضوح إنها بائعة هوى.. أو في أحسن الأحوال لصة.

- لو استمر النزيف فسأفقد الوعي!

سألتها بخوف:

- ماذا يمكنني أن أفعل؟

- أحضِرْ لي شيئاً أضمد به الجرح.

خرجت من عندها، وبحثت في الصالة والمطبخ وغرفة الخادمة.. لم أجد إلا منشفة صغيرة، متسخة بسخامٍ أسود.. لو ضمدت الجرح بها فسيتلوث، وتسوء حالتها أكثر.

عُدت إليها:

- لم أجد شيئاً!

صاحت، وهي تواصل الضغط فوق الجرح:

- تصرف.. بدأت أشعر بدوار!

أحضرت لها علبة القهوة، وكُماً طويلاً اقتطعته من قميص جديد، غسلته، ولم ألبسه بعد.

وضعتُ ملعقة كاملة من البُن على الجرح، وعصبت رسغها بكُم القميص، دون أن أضغط عليه كثيراً.

أثناء ذلك تلاقت نظراتنا، فقالت بامتنان: "هربتُ من سائح، ولذتُ بسائح آخر.. وما أكبر الفارق بين السائحين.. شيطان، وملاك".. هيأت نفسي مسبقاً أن لا أصدق أي كلام تقوله في هذه اللحظة، حتى وإن كانت له أسباب منطقية.

مسحت بكفها السليمة على جبهتي، وأعادت شعري المتعرق إلى الوراء.. وقالت بصوتٍ أقرب إلى الهمس: "سينتهي كل شيء مع إشراقة الصباح.. أعدك بذلك".

بعد دقائق قليلة سألتها باهتمام:

- هل توقف النزيف؟

ألقت نظرة غير مبالية على رسغها الملفوف، وردت:

- وهل يملك ألا يتوقف؟

افترشتُ الأرض، وأسندتُ ظهري للجدار..

- الحمد لله!

نهضت عن حافة البانيو، وقالت:

- هيا بنا ننظف المقبض، والأرضية من قطرات الدم!

رفضتُ بشدة:

- لن أنظف شيئاً!

ردَّتْ بابتسامة جميلة ترتسم على شفتيها:

- مفهوم، أنا سأتكفل بذلك!

وضعَت القميص منزوع الكُم في حوض المغسلة، وسَكَبَت عليه الماء البارد حتى ثقل وزنه.. ثم رفعته، وعصرته بيديها حتى نشف وخف.. نفضته في الهواء، فتناثر الرذاذ على وجهي.. ضحكت، فازدادت ملامحها شقاوة وفتنة.. سارت إلى الباب بخطوات مُتغنجة، وساقاها المصقولتان منكشفتان بالكامل..

من وسْط الفخذ حتى أخمص القدم.. نظفَت المقبض بعناية.. ثم انكبت على الأرض تمسحها حتى عادت أنظف مما كانت.

رفعَتْ رأسها نحوي، وقالَتْ:

- اختفت آثار الجريمة.. لم يبقَ إلا أن أغادر الشقة مع إشراقة الصباح.. الآن يمكنك أن تنام في غرفتك مرتاح البال، وأنا سأستلقي هنا على الأريكة.

شعور بالطمأنينة سرى بداخلي وأنا أرى الدماء تتلاشى من المقبض والأرضية.. شكرتها وقلت باستحياء:

- أكملي معروفك، واغسلي القميص!

ردَّتْ وهي في طريقها إلى الحمام:

- حباً وكرامة.. حتى قميصك الذي ألبسه الآن سأغسله، وأعيده إليك نظيفاً ومكوياً بعد الظهر!

صحت:

- لا، لا.. لا داعي لذلك!

ارتسمت على وجهها ابتسامة ماكرة، وقالت:

- إذن سأحتفظ به كتذكار، فالرجال النبلاء نادرون في هذا الحي!

صحت بصوت أعلى:

- لا، لا.. لن أسمح لك بأخذه!

سألتني وهي تتظاهر بالدهشة:

- هل تريدني أن أغادر الشقة بلا ثياب؟

- ليست مشكلتي يا..؟

- ريتا، اسمي ريتا..

- ليست مشكلتي يا ريتا.. تصرفي.. اتصلي بإحدى صديقاتك لتحضر لكِ ثياباً، أو عودي إلى الشقة التي جئتِ منها!

بخاطرٍ مكسور ردت:

- أمهلني حتى الشروق، وسأتصرف!

تذكرت أني لم أسألها حتى الآن عما حدث لها في الشقة المجاورة، وكيف هربت، وعن أسباب الجرح في رُسغها الأيسر.. هممت بسؤالها.. لولا أن أمسكت لساني في اللحظة الأخيرة، بعد أن تنبهت إلى أن معرفة بعض التفاصيل ورطة قد تجعل مني شريكاً في ما حدث.. وفي أفضل الأحوال شاهداً عليه.

صحيح أن رجلي انزلقت في الموضوع الآن، وانتهى الأمر.. لكن التوقف عند هذا الحد أفضل من الانزلاق أكثر.

سألتها:

- من أين أحضرتِ الشموع؟

أجابت:

- من المطبخ.

- هل توجد شموع أخرى؟

- نعم، يوجد الكثير منها.. فالكهرباء تنقطع دائماً عن هذا الحي.

لفتت انتباهي طريقة توزيع الشموع داخل الشقة، كل شمعة في مكانها الصحيح.. ذكرتني بطريقة توزيع الإضاءة في غُرف الفنادق الكلاسيكية القديمة، تتكامل في ما بينها لتمنح المكان أجواءً شاعرية.

في هذا الحي المشبوه، من المعتاد جداً أن تتردد الفتيات الجميلات إلى شقق السياح.. ومن المعتاد أيضاً أن يبِتْنَ طوال الليل فيها.. وطالما مرت الأمور بسلام.. لا أحد يسأل.

هذا ما قاله لي أيوب عندما تسلمت منه مفاتيح الشقة.. المهم ألا تحدث جريمة.. أو مشكلة كبيرة تلفت الأنظار.

الأمر غير المعتاد هو أن يقيم سائح محترم في حي سيئ السمعه مثله.. أما الأمور الأخرى، فكلها طبيعية، وتحدث كل يوم، وربما كل ساعة.. حتى المشهد الذي رأيته قبل قليل عند باب الشقة المجاورة يعتبر في عُرف هذه الأماكن معتاداً، وطبيعياً، ولا يدعو للدهشة.. تماماً كما قال أيوب قبل أن يصفق الباب في وجهي.

محاولة دخول

لا أدري ماذا حدث، لكن صوت مقبض الباب، وهو يتحرك يميناً ويساراً أيقظني من نومي العميق.. لوهلة ظننت أن كل ما رأيته قبل قليل كان حلماً.. لكن صوت ريتا القادم من وراء الباب بدد هذا الظن سريعاً:

- افتح الباب من فضلك.. أريد أن أخبرك بأمرٍ مهم!

صحت بصوتٍ ناعس:

- لن أفتح الباب.. قولي ما عندك؟

- نحن. الاثنين. سنقع في ورطة كبيرة إذا لم نتصرف بسرعة!

قلت في نفسي: "وماذا يمكن أن يحدث أكثر من ذلك؟".

جاءني صوتها مرة أخرى:

- الشرطة قد تُداهمنا في أي لحظة!

تظاهرت بعدم الإكتراث، وقلت:

- لم أرتكب جريمة حتى أخاف!

- ليس بالضرورة أن ترتكب جريمة حتى تخاف.. خصوصاً في هذا الحي!

قلبت كلامها في رأسي، ووجدت فيه الكثير من المنطق.. صحيح، ليس بالضرورة أن ترتكب جريمة لكي تخاف.. فاللص المحترف مثلاً عندما يسطو على شقة معينة.. يكون على الأغلب قد احتاط لكل شيء، ورسم لنفسه مسارات الهروب.. على العكس من الإنسان البريء، الذي قد يقوده حظه العاثر إلى المكان الخطأ، في الزمان الخطأ.. فيجد نفسه مداناً بجريمة لم يرتكبها، حتى وإن كان الجميع على يقين من براءته!

مشيت إلى الباب بخطوات متثاقلة، ومئات الأفكار تزدحم في رأسي.. فتحته، وتواريت خلفه.. رأيتها واقفةً بشعرها الكثيف، وساقيها العاريتين.. قلتُ وأنا أتحاشى النظر إلى عينيها:

- سأختصر عليك الطريق ريتا، ولكِ أن تتصرفي كما تشائين.. كل الأشياء المهمة تركتها في خزانة فندق المدينة.. جواز السفر، وبطاقات الائتمان، والنقود.. أنا مقيم بصفة رسمية هناك.. كلُّ ما حملته معي إلى هذه الشقة البائسة هو ثمانمئة دولار أمريكي.. صرفت منها مئتين وعشرين، وتبقى معي

خمسمئة وثمانون.. أو أقل قليلاً.. أحتاج منها إلى ثمانين دولاراً على الأقل لزوم الإفطار والمواصلات إلى الفندق.. ما رأيك في الخمسمئة الباقية؟

تساءلت بدهشة:

- هل تراني شحاذة أو لصة حتى أساومك على مالك؟

- لماذا تريدين الدخول إذن؟

- لا أريد الدخول.. اخرُجْ لي أنت!

لم أصدق شيئاً من كلام ريتا.. لا الأمر المهم الذي تريد أن تحدثني بشأنه، ولا الورطة التي سنقع فيها نحن الاثنين إذا لم نتصرف بسرعة، ولا الشرطة التي ستُداهمنا في أي لحظة.. لكني مع ذلك وافقت على الخروج.. لا أدري لماذا.. ربما لأني أقيم وحدي، وأحتاج إلى بعض المؤانسة.. وربما لكيلا أفوّت فرصة سانحة للحديث مع فتاة مشبوهة من سكان الحي الذي جئتُ لسبر أغواره.. وربما لأنها جميلة، ومثيرة للغاية!

الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل، الوقت الذي ينام فيه العقل وتستيقظ العاطفة!

في الصالة

سألتُها وأنا نصف نائم:

- ما الأمر المهم الذي أيقظتِني من أجله؟

كنت جالساً على أريكة طويلة، مرتدياً "شورت" رمادياً، و"تي شيرت" أبيض.. فيما تجلس هي عن يميني على أريكة منفردة، مرتفعة قليلاً، وتُغطي فخذيها المنكشفتين بوسادة بيضاء عريضة أحضرتها من غرفة الخادمة.

أجابت بحذر:

- ثمة ممنوعات مخبأة في الشقة!

- ممنوعات مثل ماذا؟

- هيروين على الأرجح!

- ومن خبأها يا ترى؟

- العصابات في هذا الحي كثيرة، وهذه العمارة بالذات شهدت مداهمات كثيرة من هذا النوع!

نهضتُ من مكانيْ، وقبل أن أخطو نحو المطبخ.. التفتُّ إليها، وقلتُ:

- بإمكانك التفتيش عنها كما تشائين، بشرط ألا تقتربي من غرفة النوم!

ما حدثْ بعد ذلك كان مثيراً للدهشة، وعصيَّاً على الفهم.. دفعني في بعض اللحظات إلى مراجعة تحليلاتي السابقة للموقف، والميل لتصديقها.

أنا منهمك في إعداد القهوة، وهي منهكمة في تفتيش الشقة.. كنت أتظاهر بالانشغال التام عنها، لكني أختلس النظرات إليها من حينٍ لآخر من النافذة المفتوحة على الصالة.. خصوصاً عندما تعطيني ظهرها.

بدأَتْ بتفتيش الأريكة.. أزاحت الوسادات من مكانها.. تحسَّسْتها بعناية فائقة، وكأنها موظفة أمن في مطار.. انتقلت بعد ذلك إلى الخزانة الضخمة المستندة إلى الجدار، وأفرغتها من جميع محتوياتها.. ثم سحبتها بكل ما أوتيت من قوة، وفتشت وراءها، وفوقها، وتحتها.. حتى السجاد المفروش على الأرض رفعته من الأطراف، وفتشت تحته!

انتقلت بعد ذلك إلى غرفة الخادمة، والحمام، وقضت فيهما بعض الوقت.. ثم دخلت المطبخ.. فتحت جميع الأدراج والدواليب، لم تتركْ علبة مغلقة إلا وفتحتها.. حتى محتويات الثلاجة، فتشتها قطعة قطعة!

كانت أثناء بحثها تقف على أطراف أصابعها أحياناً، وتنحني، وتجثو على ركبتيها، وتركع وتسجد في أحيان أخرى..

وأثناء ذلك تتعرى، وتنكشف مفاتنها.. وأنا أغض طرفي تارة، وأختلس النظرات تارة أخرى.

لكن السؤال الكبير الذي تشكل في ذهني، ولم يكن من الممكن وأده: "لماذا تفعل ذلك؟".

طلبت مني التراجع قليلاً إلى الوراء، لإفساح المجال لها لتفتح الفرن، وتُفتشه من الداخل.

امتثلت لأمرها.. رفعت ركوة القهوة، وأخذتها معي إلى الصالة.. انتظرتها هناك.. حتى عادت خائبة، ومُتعبة.

سألتها بلهجة حاولت أن أجعلها ساخرة، لكني لم أفلح على الأغلب، فالمخاوف كانت تتوالد في عقلي، وتتضخم:

- هل وجدت شيئاً؟

أجابت وهي تلهث من التعب:

- لا.. الممنوعات في غرفتك!

- هل أنت جادة ريتا؟

- أكثر مما تتصور!

رافقتها إلى غرفة نومي، وسمحت لها بتفتيشها.. فتحت لها الدولاب، وكنت أراقبها عن كثب، وهي تقلب الملابس، وتتحسّس جيوبها.. أمضت أكثر من نصف ساعة تبحث

في كل مكان يمكن أن تُخبأ بداخله ممنوعات من أي نوع.. فوق السرير، وتحته، وخلفه، وما بين المرتبة والألواح.. داخل أدراج "الكوميدينو"، وطاولة العطور.. لكنها لم تعثر على شيء.. حتى الأباجورة فكتها، وفتشت زجاجتها المضببة، دون جدوى.

استلقت على السرير، وقالت بنبرة يائسة:

- لا فائدة من الاستمرار في البحث.. لن نعثر على شيء!

قلتُ وأنا أنظر إليها بحيرة، وارتياب:

- سأسلم المفاتيح في الصباح لأيوب، وأخلي مسؤوليتي من كل شيء.

- هل وقعت عقدَ إيجار؟

- نعم.

- كم مدته؟

- أسبوع.

- إذن مسؤوليتك ستظل قائمة حتى ينتهي هذا الأسبوع!

- سأطلب براءة ذمة من اليوم.

- سيُماطل، حتى تنقضي المدة المتفق عليها!

أحاول أن أستعيد هدوئي السابق، لكن لا أستطيع.. شيء ما في تصرفات ريتا يقول إن الأمر أكثر تعقيداً مما أظن.. أفكر بشيء من المنطق، ولا أجد سبباً مقنعاً لأن تقوم عصابة بوضع ممنوعات في شقة سائح لا تعرفه، ثم تقوم بالإبلاغ عنها..

أفهم أن تقوم عصابة بابتزاز سائح للحصول على أكبر قدر ممكن من المال، لكن لا أفهم أن تسعى لإدانته بجريمة كبيرة تقوده إلى قضاء سنوات طويلة في السجن دون أي فائدة تعود إليها.

- هل لديك حل ريتا؟

- نعم.

- ما هو؟

- أحضر مبلغاً إضافياً من الفندق!

- لماذا؟

- لكي يكتفوا به، وتنتهي المشكلة!

- كم تقريباً؟

- ثلاثة آلاف دولار على الأقل!

- تمزحين؟

- لا وقت للمزح!

فكرتُ قليلاً، ثم سألتها:

- وماذا لو خرجت، ولم أعد؟

أجابت، وهي ما تزال مستلقية:

- سيُبلغون الشرطة عنك، ويحملونك مسؤولية الممنوعات الموجودة!

بدأت أفهم الموقف.. أو هكذا ظننت.. ريتا وسيطة، ومفاوضة.. أكثر منها لصة أو بائعة هوى.. وظيفتها إدخال فرائسها في أجواء من الرعب الشديد، والمخاوف الكبيرة.. وبعدها تفاوضهم بدهاءٍ مقابل إخراجهم منها..

طريقة المفاوضات تعتمد على طبيعة ردة فعل الفريسة.. هل ترتعب من البداية، أم تثبت ولا تكترث.

لا أعتقد أني سأتعرض لمداهمة من قبل الشرطة، خصوصاً أن ريتا تأكدت من أن الشقة تخلو من أي مبالغ نقدية كبيرة.. المداهمة كانت ستتم لو كانت المبالغ موجودة بالفعل، أو على الأقل هناك احتمال معقول لوجودها.. ولن يقوم بها عناصر شرطة حقيقيون، وإنما أشخاص مجهولون متعاونون معها.. ينتحلون صفة شرطة.

أغلب الظن أن ريتا كانت تفتش عن النقود طوال الفترة الماضية، وليس عن الممنوعات كما ادعت.. ومن حسن

حظي أنها عثرت على المبلغ الذي أخبرتها عنه منذ دقائق، ولم تعثر على غيره.

كل ما حدث كان مُخططاً له بعناية، ومشهد الاستغاثة الذي رأيته قبل ساعات كان متفقاً عليه دون شك.. والعصابة موجودة على الأغلب في الشقة المجاورة أو أي مكان آخر في العمارة، وثمة وسيلة اتصال بينها وبين ريتا.

لكن مع ذلك لا أظن أني في مأزق حقيقي، وكل هذه التمثيلية السخيفة ستنتهي قريباً لو واصلت الصمود.

نعم، لقد ارتكبت خطأً كبيراً عندما سمحت لها بالمبيت معي، وكان من المفروض أن أطردها فور رؤيتي لها، حتى وإن كانت جريحة، وبلا ملابس.. فالوضع الذي دخلت به، تخرج به.. هذا شيء لا أتحمل أنا مسؤوليته.

- ريتا..

- نعم..

- عودي إلى الصالة من فضلك، ولنستمر على اتفاقنا السابق!

- أي اتفاق؟

- أن أنهض في الصباح، ولا أجدك!

- وماذا ستفعل إذا داهمتنا الشرطة؟

- لن أفعل شيئاً.. سأدع القانون يأخذ مجراه!

غـــادة

الجرح الذي في رسغ ريتا.. هل هو حقيقي أم مجرد تمثيلٍ هو الآخر؟

سؤال لم أستطع تجاوزه، وأنا أسترجع تصرفات ريتا غير المنطقية!

نعم.. رأيت دماء كثيرة تختلط مع الماء في حوض المغسلة، لكن ما الذي يثبت أنها حقيقية؟

تذكرت!

عندما هممت بوضع البن على الجرح، رأيت خطاً أفقياً ملوثاً بشيء يشبه الدم اليابس.. وعندما حاولت تنظيفه بكُم القميص ظل كما هو، لم يتغير.. فوضعت البن عليه، خوفاً من نكئه.

فكرت في الخروجُ إلى ريتا، وفك ضماد رسغها للتأكد من حقيقة الجرح.. لكني عدلت عن الفكرة سريعاً، فهذا الأسلوب العنيف في التعامل مع النساء لا يليق بي أبداً.. وقد يكون هناك جرح فعلاً، لكنه مفتعل، وسطحي، ولا يمكن

أن تتدفّق منه كل هذه الدماء.. الاحتمالات كثيرة، ولا يمكن إخضاعها كلها للاختبار والتجربة.

"من أين سيأتي النوم؟"

سألت نفسي وأنا أقلب الاحتمالات في عقلي، وكلما انتهيت من واحد، انبجس مكانه آخر.

اتصلت بغادة، وأخبرتها بسفري، ووجودي في الحي المشبوه، وما حدث لي في عمارة زبيدة.. في بداية الأمر ظنت أني أمزح معها، ولم تصدق أني أكلمها من دولة أخرى.. وعندما استشعرت نبرة الجدية في صوتي، سألتني بدهشة:

- هل جُننت؟

قلت:

- دعكِ من اللوم الآن، وأخبريني ماذا أفعل؟

- غادر الشقة فوراً، وعُد إلى الفندق!

- هل أتصل بالشرطة؟

- لا أنصحك بذلك ما دامت الأمور هادئة.. أنت إعلامي

معروف.. وليس من مصلحتك خروج هذه الحادثة إلى العلن.. حاول لملمة الموضوع بكل الوسائل الممكنة.. ولو تطلب الأمر دفع بعض النقود!

- شكراً غادة، والمعذرة على إزعاجك.

- لحظة.. هل اتصلت بريم؟

- لا!

- إياك أن تخبرها.. لن تغفر لك!

- أعلم ذلك!

علاقتي بغادة تعود إلى عشرين سنة خلت، عندما كنا نعمل معاً مراسلين في قناة تلفزيونية واحدة.. وعن طريق غادة تعرفت إلى ريم، واخترتها زوجة.. فقد كانت زميلتها في عملها السابق، وتتردد إليها من حين لآخر.

- في الشهر الثاني من زواجنا.. سألتني ريم "لماذا لم تفكر بغادة كشريكة حياة؟".. فاجأني سؤالها يومها، وبدا لي غريباً، ويخفي بين طياته شكوكاً عميقة.. أجبت "غادة زميلة عزيزة، تحولت بمرور الأيام إلى صديقة مقربة، لكني لم أفكر فيها يوماً

كزوجة".. "وهذا سؤالي يا عبدالوهاب.. لماذا لم تفكر فيها كزوجة.. ماذا ينقصها؟".. "لا ينقصها شيء".. "إذاً لماذا تجاوزتها، واخترتني؟".. "لأن قلبي مال إليك".. "هل أنت متأكد من ذلك؟".. "طبعاً.. هل لديك شك؟".. "أحياناً أشعر أنك اخترتني لأني من نفس جنسيتك، وبيئتك، وثقافتك الاجتماعية.. على العكس من غادة البعيدة، والمختلفة بعض الشيء".. "ألا ترينها أسباباً وجيهة لتفضيلك عليها؟".. "بصراحة لا.. المعيار الأهم عندي هو الانسجام العاطفي والتوافق الفكري".

أسئلة ريم كان مباغتة، وعميقة.. مثل جبال الجليد، التي تُفاجئ السفن في البحار المتجمدة البعيدة.. ولا تمنحها فرصة للالتفاف والمناورة.

حاولت يومها أن أوضح لها أن وضعها كزوجة يدفعني لإخفاء بعض التفاصيل عنها، لكي أنأى بعلاقتي بها عن أي عواصف محتملة.. وأن استمرار غادة في حياتي أمر أراه مريحاً، وغير

ضار.. لكني كنت على يقين تام بأنها لن تتقبل الفكرة، ولن تهضمها.. فآثرت الصمت، وتركت علاقتها بصديقتها تنهار يوماً بعد يوم.. حتى انتهت.

أما علاقتي بغادة، فلم تنتهِ حتى هذه اللحظة.. وهو الأمر الذي حرصنا -نحن الاثنين- على كتمانه عن ريم.

دِماء

ما بين الحلم واليقظة كانت هناك صرخات تأتي من مكان قريب.. أصوات ارتطام، وسقوط، وباب ينصفق بقوّة.. استيقظت من غفوتي الخفيفة فَزِعاً.. وأنا لا أعلم هل ما سمعته حلماً كان أم حقيقة؟

نظرت إلى الساعة، فرأيت عقاربها تقترب من الثانية صباحاً.. صرخة أخرى أعلى، وأكثر وضوحاً جاءت من المكان القريب ذاته.

"ريتا".. صحت بأعلى صوتي.. لا أحد يجيب.. اندفعت إلى الباب، فتحته بسرعة، وأول ما نظرت إليه هو الأريكة.. وجدتها خالية، والوسادة العريضة مرمية إلى جوارها.. وبقع حمراء كبيرة تملأ الأرض من حولها.

تناولت شمعة من فوق الطاولة، وقربتها من البقع الحمراء أكثر، فتأكدت من أنها دماء حقيقية، غليظة، وشديدة القتامة.. سقط قلبي من مكانه، وتتبعت البقع.. حتى وصلت إلى الحمام.

ألصقتُ أذني على الباب، فسمعتها تئن وتتأوه بالداخل.

صحت بصوتٍ خفيض، لا أريد أن يسمعه أحد:

- هل أنت بخير؟

جاءني صوتها مخنوقاً، وكأنه من قبر:

- لا تدخل!

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟

- لا، لا.. ابقَ في الخارج!

بعد انتظار، وتردد.. دفعت الباب، ودخلت.. فصَرَخت بأعلى صوتها:

- لا.. لا!

المنظر داخل الحمام كان مرعباً، ولا يمكن احتماله.. الدماء في كل مكان.. المرحاض، الأرضية، وحواف البانيو.

التفتُّ بسرعة إلى ريتا، فرأيتها جالسة على الأرض، وتُسند ظهرها إلى الجدار.. ساقاها منفرجتان، وبحيرة من الدماء تتوسطهما.. وجهها خالٍ من الحياة، وعيناها شاخصتان للأعلى.

سألتها بفزع:

- ماذا حدث؟

أجابت، وهي تنازع الموت:

- لا أدري.. لا أدري!

- هل أنتِ حامل؟

- ربما.. ربما!

في هذه اللحظة، أدركت أن الدائرة ضاقت جداً، وأن الخيارات أمامي أصبحت محدودة للغاية، وأن الخطأ الذي ارتكبته قبل ساعات قليلة من الآن، لم يعد من الممكن تصحيحه.. وأن ما حدث هذه الليلة سيخرج إلى العلن لا محالة.. وأن عناوين الصحف ستمتلئ قريباً بعناوين مثيرة، تجعل حكايتي مع ريتا على كل لسان.

"العثور على جثة فتاة عربية مجهولة في شقة إعلامي خليجي".. "فضيحة مدوية، طرفاها إعلامي خليجي وفتاة عربية مجهولة".. "جريمة غامضة تسلط الضوء على الجوانب المظلمة من حياة المثقفين، ورجال الإعلام".

تساءلتُ في داخلي بألم، ودهشة: "لماذا تسير الأمور هكذا؟".

ملايين الرجال يسافرون كل يوم إلى أكثر المدن شبهة، ويدخلون أكثر المواخير قذارة، ويعبثون لأسابيع طويلة مع فتيات من كل صنف ولون، ويعودون بعد ذلك كله إلى ديارهم سالمين غانمين.. لا عين رأت، ولا أذن سمعت.. في حين أُدان أنا في قضية لا ناقة لي فيها، ولا جمل.. وكل جريمتي أني سترت على فتاة استجارت بي في لحظة ضعف، ومنحتها مكاناً تبيت فيه حتى الصباح، لتتصرف بعدها، وتغادر الشقة دون أن يفتضح أمرها.

جاءني صوتها:

- هل معك هاتف؟

- نعم

- أريد أن أتصل بطبيبة!

أحضرت لها الهاتف، وعُدت إلى الصالة أنتظر.. أنا والشموع من حولي.. لم يكن بمقدوري البقاء معها، واحتمال نظرات

الألم والحرج في عينيها.. كان الوضع بأكمله فوق طاقة احتمالي.. فتوقفت عن التفكير، وتضرعت إلى الله بالدعاء: "يا رب أغثني، ولا تشمت الأعداء بي.. يا رب الطُفْ بي، وارفع عني هذا البلاء".

فتاة غامضة

بعد خمس وأربعين دقيقة من الانتظار الصعب، سمعت طرقات خفيفة على الباب.. هرعت لأفتح، فإذا بها امرأة متشحة بالسواد.. لا يَظهر منها إلا عيناها.. أعدت إغلاق الباب بسرعة، وسألتها بفزع:

- من أنتِ؟

أجابت بصوت لا يكاد يُسمع:

- الطبيبة!

فتحت الباب بزاوية ثلاثين درجة تقريباً، وألقيت عليها نظرة فاحصة.. من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى.. جلباب أسود، وحجاب أسود، ونقاب أسود، وقفازات سوداء، وجوارب سوداء، وحذاء أسود.. وإلى جوارها حقيبة جلدية سوداء هي الأخرى.. سواد في سواد!

- أين المريضة؟

أشرت إلى الحمام.. فسارت إليه بخطوات باردة، كأنها مُغسّلة أموات في طريقها لتجهيز جثة.. دخلَتْ، وأغلقت الباب وراءها.. سمعت صوت المفتاح يدور في القفل.. فعدت إلى الأريكة، أنتظر.

لو كنت في وضع أفضل، لسألت هذه المرأة المريبة عن هويتها، وعما ستفعله مع ريتا، لكني لا أملك في هذه اللحظة إلا أن أسمح لها بالدخول، وتقديم المساعدة.. دون قيدٍ أو شرط.

فكرت في الاتصال بغادة، وإخبارها بمستجدات الوضع، وما آلت إليه الأمور، وطلب مشورتها.. لكني تراجعت بسرعة.. فالحكمة تقتضي الآن أن أحصر هذه المستجدات الحساسة في أضيق نطاق ممكن، ولا أسمح لها بالخروج لأي سبب.. وما كان بمقدوري أصلاً أن أحتمل المزيد من التوبيخ، واللوم. "لو توقف النزيف، واستردت ريتا عافيتها". فسأطرد الفتاتين معاً.. حتى لو اضطرت الطبيبة أن تحمل ريتا على ظهرها"..

هكذا كنت أفكر قبل أن تفتح الباب فجأة، وتقول:

- ادخُلْ إلى غرفة النوم، وأغلق الباب وراءَك.. لا تخْرج إلا عندما أطلب منك ذلك!

سألتها:

- لماذا؟

- سأقوم بأشياء ليس من المفترض أن تراها!

ترددت قليلاً في الاستجابة لها، لكني وافقت في النهاية.. فأنا فعلاً لا أريد أن أرى أكثر، أو أعرف أكثر.. دخلت إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب ورائي.

الوقت يمر، والأصوات لا تنقطع في الخارج.. خطوات ذاهبة، وأخرى قادمة.. قرقعة أوانٍ.. قطع أثاث تتحرك.. أبواب تفتح، وتنصفق.

غلبني الفضول.. فتلصصت عليها من ثقب المفتاح.. وما هي إلا لحظات، حتى رأيتها تعبر إلى المطبخ بملابسها الداخلية.. وتقضي بداخله بعض الوقت.. ثم تخرج حاملةً معها كيساً لم أتبين ما بداخله.

لم أفهم ما يجري، فواصلت التلصُّص من ثقب المفتاح.. فالحقائق على ما يبدو لا تظهر في العلن، ولا بد من التلصُّص للوصول إليها.. لكن لعشرين دقيقة لم يحدث شيء.. الطبيبة

داخل الحمام، والباب مقفل.. بعدها بدقيقتين أو ثلاث انفتح الباب مرة أخرى، وخرجت الطبيبة بنفس مظهرها السابق، ليس عليها إلا القليل من الملابس.. دخلَتْ إلى غرفة الخادمة، وخرجت منها حاملةً معها سطلاً، وممسحة بلاط.. سكبت الماء على أرضية الصالة، واستغرقت وقتاً طويلاً في تنظيفها.. ثم عادت إلى الحمام، ومعها السطل والممسحة.

الأمر المطمئن في ما أراه أن انشغال الطبيبة بأعمال التنظيف، يدل بشكلٍ أو بآخر أن حالة ريتا مستقرة، ولا تدعو للقلق.. فليس من المعقول أن تنشغل بتنظيف الشقة لو كانت المريضة ما تزال في حالة حرجة.

لكن.. متى كانت الطبيبات ينظفن شقق المرضى؟

ثمة علاقة وطيدة بين الفتاتين، الطبيبة وريتا.. لا يوجد تفسير غير ذلك.

ربما هذه الطبيبة تتكسب من وراء بعض الأعمال غير المشروعة، وربما تكون ممرضة، أو قابلة.. وليست طبيبة بالمعنى العلمي للكلمة.

بائعات الهوى يحتجن كثيراً لخدمات غير مشروعة.. إجْهاض، تنظيف، رتق.. وأشياء من هذا القبيل.. وهذا الحي المشبوه يمثل مرتعاً خصباً لمثل هذه الممارسات.

جاءني صوتها من الصالة:

- تعال.. نحتاج إلى مساعدتك!

تأخرت في الاستجابة قليلاً، لأوحي لها بأني مُستلقٍ على السرير.. وعندما خرجت، رأيتها واقفة عند باب الحمام.. لكن بملابسها الكاملة هذه المرة.. أرضية الصالة نظيفة، والوسادات عادت لأماكنها على الأرائك.

سألتها عن ريتا.. لم تُجب.. اكتفت بفتح الباب كاملاً.. فرأيت ريتا بقميص نوم نظيف، قصير وشفاف.. تجلس مسترخية، ومستندة إلى الجدار.. ولا أثر للدماء في المكان.. حتى السطل والممسحة لا أثر للدماء عليهما.

دققت في ملامحها أكثر، فوجدتها أفضل بكثير مما كانت عليه: "الحمد لله".. قلت في نفسي وأنا أرى لُطف الله ينزل علينا من سابع سماء.. شعرت وكأني استيقظت من كابوس

مرعب!.. لكنه ليس استيقاظاً كاملاً.

سألت الطبيبة وأنا أتحاشى النظر إلى ريتا:

- ألا توجد ملابس أكثر احتشاماً؟!

فغرت فاها، وقالت:

- وهل أدخلتها شقتك لكي تحتشم؟!

فكرت أن أشرح لها الموقف من البداية، ثم عدلت عن الفكرة.. فانطباعها في النهاية لن يُقدم ولن يؤخر.. وحتى لو شرحت لها، لن تفهم.. هي اعتادت أن ترى السياح الخليجيين في صورة معينة، وليس لديها استعداد لتقبل أي صورة مغايرة وإن كانت حقيقية.

جثوت على ركبتي إلى جوار ريتا، وسألتها بلطف:

- هل أنتِ بخير؟

أمسكت بكفي، وقالت بصوت فيه شيء من الراحة:

- الحمد لله.

طلبت مني الطبيبة مساعدتها في حمل ريتا، ونقلها إلى غرفة النوم.. فطلبت منها التنحي جانباً، وحملتها وحدي إلى

السرير.. سارعت الطبيبة إلى وضع مخدة تحت ساقيها، بحيث أصبح مستوى فخذيها أعلى قليلاً من مستوى حوضها.. ثم سألتها إن كانت تحتاج إلى شيء آخر.. فأومأت برأسها: "لا".

غادرت الطبيبة الغرفة، وتبعتها أنا بعد دقائق قليلة.

خمسة آلاف دولار

عندما خرجت من غرفة النوم، توقعت أن أرى الطبيبة تستعد لمغادرة الشقة، بعد أن أدت مهمتها، وقدمت المساعدة.. لكني وجدتها جالسة على الأريكة، وحقيبتها الجلدية السوداء إلى جوارها.

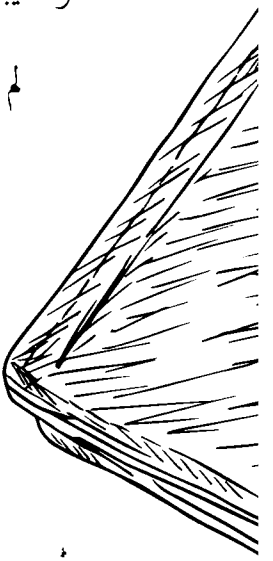

لم أجلس، واكتفيت بالوقوف في وضعية من ينتظر تفسيراً لما حدث.. لكنها بدلاً من ذلك طالبتني بدفع خمسة آلاف دولار، ثمناً لعملية التنظيف التي أجرتها لريتا.. وعندما رفضتُ، صاحت غاضبة:

- لن أخرج قبل أن أتسلم أجري كاملاً، ولا أنصحك بالعبث معي بأي طريقة!

قاطعتهُا، وقلت بلهجة حاسمة:

- أنا رجل محترم، وإعلامي معروف.. جئت إلى هنا لأُعِد تقريراً عن هذا الحي القذر، والحوادث المريبة التي تحدث فيه.. لا أعرف ريتا، ولا علاقة لي بالنزيف الذي أصابها!

- تذكر أني أنقذتك من ورطة كبيرة!

- صحيح، لكن أتعابك يجب أن تطلبيها من ريتا!

- ريتا لا تملك شيئاً!

- ليست مسؤوليتي!

جاءني صوت ريتا من الداخل ضعيفاً، ومتعباً:

- أعطها ما تريد، ودعها تنصرف!

عُدت إلى الغرفة، وصرخت فيها:

- لن أعطيها فلساً واحداً، ولولا وضعك الحرج لطلبت منك المغادرة معها!

كانت الطبيبة واقفة عند الباب من الخارج، تترقّب ما ستتمخض عنه محاولة ريتا.. وعندما أيقنَتْ أني لن أدفع شيئاً، غادرت، وهي تُهدد، وتتوعد.. لم أكترث لما تقول، وأحكمتُ إغلاق الباب بالقفل والمزلاج من الداخل!

الشرطي

كنت مستلقياً على الأريكة، أفكر في ما حدث.. في استغاثة ريتا، وتسللها إلى الشقة، والجرح، والقميص القصير.. والساقين العاريتين، والممنوعات المخبأة، والبحث المحموم، وصراخ منتصف الليل، والنزيف الغزير، والطبيبة المريبة، والكيس الذي خرجت به من المطبخ، والسطل والممسحة، ومطالباتها الأخيرة.

أحداث غريبة، ومريبة.. لا يمكن أن تحدث بمحض الصدفة.. وتشير بوضوح إلى وجود مكيدة اشترك في تدبيرها أكثرُ من طرف.. ريتا، وأيوب، والطبيبة، وأشخاص آخرون يؤدون أدواراً من خلف الكواليس.. قد يظهر بعضهم في أي لحظة.

هل يمكن أن تكون كلها فصولاً من مسرحية، الهدف منها ابتزازي بجميع الطرق الممكنة.. كلما تفشل طريقة، يلجؤون إلى أخرى؟

ربما، فكل شيء محتمل في هذه الأماكن المشبوهة!

هل يمكن أن يكون النزيف الغزير هو الآخر تمثيلية؟

ممكن جداً، فأنا بطبيعة الحال لم أرَ الدم وهو ينزل من ريتا.. وكل ما رأيته بقع كبيرة متناثرة هنا وهناك، وبحيرة مخيفة من الدماء تتوسط ساقيها!

الباب يُطرق..

- من؟

جاءني صوت من الخارج، غليظ وصارم:

- افتح، أنا الشرطي المناوب!

تجاهلته.. الطَّرْق تحول إلى ركل، والصوت تحول إلى صراخ، وتهديد:

- افتح، وإلا كسرت الباب!

قبل أن أفتح دخلت على ريتا، وكانت مستلقية على السرير، لكنها ما تزال مستيقظة.. سألتها عما يجري.. فهدأت من روعي، وقالت:

- افتح، ولا تخف من شيء.. سيسألك عني، وعما أفعله في شقتك.. أخبره بما حدث دون زيادة، أو نقصان.. لا تبرر، ولا تدافع عن نفسك.. تكلم بثقة، واترك الباقي علي!

فتحت الباب، فتبدى أمامي في العتمة رجلٌ في منتصف العمر.. متوسط القامة، ويميل إلى السمنة قليلاً.. حليق

اللحية، وله شارب سميك.. يرتدي ملابس شرطةٍ أنيقة، ومرتبة.. وإلى جواره تقف الطبيبة المريبة التي غادرتنا للتو.. لمحت اسمه على القميص.. كمال عبدالمنعم.. استجوبني في عجالة، وأجبتُ عن أسئلته بثبات:

- من أنت؟

- إعلامي.

- ماذا تفعل هنا؟

- أعد تقريراً لقناة خاصة.

- من معك في الشقة؟

- فتاة لا أعرفها.

- كيف دخلَتْ؟

- تسللت أثناء غيابي.

- لماذا سمحت لها بالمبيت عندك؟

- كانت جريحة، وتحتاج إلى المساعدة.

طلب مني السماح له بالدخول، فأفسحت له المجال بعد أن أظهر بطاقة العمل الخاصة به.. سأل ريتا الأسئلة نفسها، وأعطته الإجابات نفسها.. كانت نبيلة، وصادقة في إجاباتها.. برأتني من كل التهم التي حاولت الطبيبة إلصاقها

بي، وأبْدت استعدادها لتكرار إجاباتها في مركز الشرطة لو اقتضت الضرورة ذلك.

أخذ الشرطي الطبيبة من ذراعها، وتهامس معها عند الباب.. ثم عاد منفرداً، وقال بلهجة ناصحة:

- بما أنك إعلامي معروف، ولك اسمك.. أرى أنه من الأفضل أن نسوي المشكلة هنا، بعيداً عن مراكز الشرطة، والإجراءات الرسمية التي قد تستغرق وقتاً طويلاً.. أعطها ما تراه مناسباً، والله يستر عليك وعليها!

رفضت بشدة، وأوضحت:

- لم أرتكب خطيئة لتستر علي!

حاولت الطبيبة التدخل في الحوار، لكن الشرطي منعها.. قال وهو يهم بالمغادرة:

- أنا نصحتك، وأنت لم تسمع النصيحة.. سأحرر محضراً بالواقعة، وأرفعه لضابط التحقيق.. قد يتم استدعاؤك في أي لحظة.. الله يعينك!

غادر الشرطي، وغادرت الطبيبة خلفه.. وقبل أن يبتعدا، نشبت بينهما ملاسنة حادة عند حافة الدرج.. كان بإمكاني التقاط بعض الكلمات، ومحاولة الفهم من خلالها.. لكني

فضلت الانسحاب، والعودة سريعاً إلى الشقة.. أغربْ ما في الأمر أن الشرطي تجاوز ما تعرضت له ريتا في شقة السائح، ولم يُعره أي اهتمام!

دخلت إلى المطبخ، وطلبت من ريتا البقاء مستيقظة في غرفة النوم.. فثمة أمور كثيرة تحتاج إلى توضيح، ولم يتبقَ الكثير من الوقت للتحدث بشأنها.. وافقت على الفور، وكأنها كانت تنتظر هذه الفرصة.

الزوجة الغائبة

عدتُ إليها حاملاً صينية القهوة.. كوباً لي، وآخر لها.. إضافة إلى كأسين صغيرتين من الماء.. لم أسألها عن نوع القهوة التي تفضلها، افترضت أنها مثلي.. تحبها سادة.. خصوصاً أنها - كما تزعم - مريضة بالسكر.

وضعت الصينية على "الكوميدينو" المجاور للسرير، واستدرت لأحضر كرسياً من الصالة.. أمسكتني من ذراعي، وجذبتني إليها بقوة.. حتى كدت أن أقع عليها، لكني استعدت توازني في آخر لحظة.

صحت فيها:

- لماذا تفعلين ذلك؟

ردت:

- ابقَ معي!

- لن أهرب!

- لماذا تنام على الأريكة، والسرير موجود؟

- لا مانع عندي.. نامي أنتِ على الأريكة في الصالة، وسأنام أنا على السرير!

- استلقِ إلى جواري.. ألا تفهم؟

فككْتُ يدها عن ذراعي، وخرجت.. أحضرت كرسياً من الصالة، وعُدت لأجلس إلى جوارها.. كنت مصراً على فهم كل ما حدث في الساعات الماضية، مهما كلف الأمر.. ناولتها القهوة، وطلبت منها أن تستمتع بارتشافها.

قامت من وضع الاستلقاء، واستندت إلى ظهر السرير.. تناولت الكوب بيمينها، ووضعت كفها اليسرى على ظهر كفي.. حدقت طويلاً في كفي.. البشرة، الأظفار، الشعيرات المتناثرة هنا وهناك.. أخذت تمررها صعوداً وهبوطاً دون توقف، وتسترق النظرات إلى عيني من حين لآخر.

شعرت بقشعريرة، وأحسست بشيء يتحرك بداخلي.. سحبت كفي بسرعة، وسألتها:

- إلامَ ترمين؟

صمتت قليلاً، وحدجتني بنظرة ماكرة:

- أن نصبح صديقين!

- لكني رجل متزوج، ومستقر في حياتي!

- وهل تعرف زوجتك أنك تجلس إلى جواري الآن؟

- ولماذا تعرف؟

- ألا تعتبر ذلك خيانة لها؟

- لا طبعاً.. فأنا سمحت لك بالمبيت معي في الشقة لدواعٍ إنسانية، وبمجرد انتفاء هذه الدواعي، سأطلب منكِ المغادرة فوراً!

- يا عيني على الشهامة!

- ماذا تقصدين؟

- الرجال بارعون في اختلاق الأعذار لأنفسهم!

- لا شأن لي بغيري!

تَوَقَّفَتْ عن ارتشاف القهوة، وأعادت الكوب إلى مكانه.. عادت إلى وضعية الاستلقاء من جديد، وحدقت طويلاً في السقف.. قالت بتلقائية يصعب تكذيبها، وبعمق لا يمكن إنكاره:

- أنت أفضل من غيرك بكثير، لكنك لست مثالياً بأي حال.. الدافع الإنساني موجود في موقفك، لكنْ ثمة أسباب أخرى دفعتك لتحمُّل هذه المخاطرة!

- أسباب مثل ماذا؟

- لا أعرف!

- ما الذي رأيتِه مني لكي تقولي ذلك؟

فكرَتْ قليلاً، ثم أجابت:

- كل الذي رأيته سائح يعيش وحده في الغربة، يتمنع عن فتاة جريحة تسللت إلى شقته أثناء غيابه.. هذا التمنُّع له أسباب محتملة كثيرة.. ولا يمكن الجزم بأنه ناتج عن تعفُّف، أو إخلاص لزوجة غائبة!

- أسباب مثل ماذا؟

- هول الموقف.. منظر الدماء.. وضعي كفتاة مشبوهة وهاربة.. كلها عوامل قد تفرض على أي سائح يمتلك حداً أدنى من الإنسانية والحكمة أن يتعامل معي بنفس طريقتك!

- والمعنى؟

- تخيل مثلاً لو زارتك في هذه الليلة إعلامية مرموقة، تتمتع بقدر وافر من الجمال والجاذبية.. وامتد بكما الحديث إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل.. ألن يتحرك في قلبك شيء؟

- ولماذا تزورني في الشقة؟

- تخيل فقط!

- ربما، فأنا في النهاية رجل!

- أين الوفاء للزوجة إذن؟

- الوفاء يكون في رفض فكرة الزيارة من الأساس، فالنفس أمَّارة بالسوء كما تعلمين!

- وهل سترفض؟

- أعتقد ذلك!

- لاحظ أنك قلت: "أعتقد"، ولم تجزم!

السؤال المؤجل

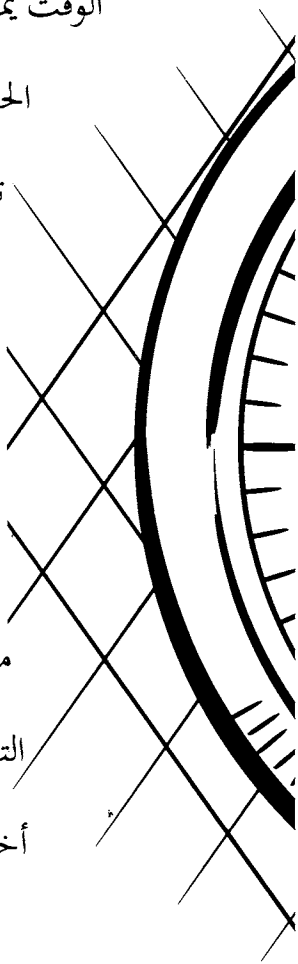

الوقت يمر بسرعة، وريتا متحكمة في مجرى الحوار.. تقول ما تريد، وتحجب ما تريد.. نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار، فرأيت عقاربها تقترب من الرابعة فجراً.. إحساس غريب بالعجز وقلة الحيلة انتابني وأنا أراها مستلقية على ظهرها، وتواصل التحديق في السقف.. أحاول أن أخترق أسوارها المنيعة، ولا أستطيع.

لاحظَتْ صمتي الطويل، فطرحت سؤالها المؤجل:

- من أنت؟

ها هي تخترقني بسؤال من كلمتين، وأنا طوال الساعات الماضية أفكر في طريقة لاختراقها ولا أجد.

استندتُ إلى ظهر الكرسي، وضممتُ ذراعيَّ فوق صدري.. وقبل أن أعثر على إجابة، استدركَتْ قائلة:

- لا ترغب في الإجابة.. أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- جسدك يقول!

"كيف يمكن اختراق فتاة ذكية.. لمّاحة.. لا يفوتها شيء.. حتى حركات الجسد".. سألت نفسي، وأنا أتأمل وجهها المتوهج وسط ضوء الشموع الخافت.

تذكرت اتفاقنا السابق، فدنوت منها قليلاً، وقلت:

- سنفترق بعد أربع ساعات ريتا.. فلماذا نقترب من بعضنا أكثر؟

- حوار الغرباء ماتع جداً، وصادق لأبعد الحدود!

- إذن، فلنبقَ غريبين، وليتحدث كلٌّ منا إلى الآخر بشفافية أكبر!

- ماذا تريد أن تعرف؟

- بداية الحكاية، وما يمكن أن تنتهي إليه!

الفخ

قبل أن أدخل شقة السائح (تقول ريتا) توقفتُ قليلاً، وسألنه: "هل سنكون وحدنا في الداخل؟".. على الفور أجاب: "طبعاً".. فتح الباب، ودخلنا.. وضعتُ حقيبتي على الطاولة، ودخلت إلى الحمام أخلع "التي شيرت" والجينز، وأرتدي مكانهما بدلة رقص ضيقة، وقصيرة.

عندما خرجتُ كان جالساً وحده وسط الصالة، يرتدي "فانيلة" داخلية بيضاء، وسروالاً طويلاً فضفاضاً.. وإلى جواره زجاجة "ويسكي" كاملة، وثلاث كؤوس فارغة.

استوقفني عدد الكؤوس، فسألته بارتياب: "لمن الكأس الثالثة؟".. ألقى عليها نظرةً بطرف عينه، وبارتباك أجاب: "أحضرتها من المطبخ كما هي، لم أنتبه للعدد".

شربنا، وتنادمنا لبعض الوقت.. وبعد الكأس الرابعة، ثمل، وطلب مني أشياء مقززة.. بعضها كانت ضمن توقعاتي المسبقة، وبعضها لا تخطر على البال.. وافقتُ على ما أستطيع، وامتنعت عمّا لا أستطيع.. لكنه كان مصراً على

تنفيذ جُميع أوامره مهما بلغت في غرابتها، وصعوبتها.. أخبرته بأني أعاني آلاماً مبرحة في بطني، ولا أستطيع أن ألبي جميع رغباته.. فاستشاط غضباً، ولكمني بقبضة يده.. فشعرت بنَفَسي ينقطع، وسقطت على الأرض أتلوى من الألم.. أريد أن أتنفس، ولا أستطيع.. أريد أن أبكي، ولا أستطيع.

(أزاحت الغطاء عن بطنها، ورفعت القميص إلى أسفل صدرها.. فتبدَّتْ لي كدمة زرقاء قاتمة فوق سُرتها.. كانت شديدة الوضوح رغم الضوء الخافت).

أكملت:

لم أحتمل أطواره الغريبة، فركضت إلى الباب بما تبقى على جسدي من ملابس.. فتحتُه، ورأيتك واقفاً في الظلام عند باب شقتك.. فَرِحْتُ، وراودني يقين بأنك نجدة من السماء، فهذه العمارة خالية دائماً، وشققها مهجورة في معظم الأيام.. مددت يدي إليك، وحاولت أن أصرخ.. لكن صديقه المختبئ في غرفة النوم خرج في هذه الأثناء، وهُرع لمساعدته في الإمساك بي.. فتعاون الاثنان عليّ، وأعاداني بالقوة إلى الداخل.

لم يكن أمامي في تلك اللحظة العصيبة إلا أن أستخدمْ أسلوباً لا ألجأ إليه إلا في أشدِّ المواقف صعوبة.. أخرجتُ مُوسَى صغيراً أحتفظ به بين أسناني، وسحبته على رسغي الأيسر حتى ارتسم خطٌّ من الدم.. حينها فقط تجمّدا في مكانيهما، ولم ينطقا بكلمة واحدة.. فهربت، وتسللت إلى شقتك.

حديث الليل

الحكاية التي سردتها ريتا كانت متماسكة للغاية، وتسلسلها منطقي إلى حدٍّ كبير.. بدايتها مُقنعة، ونهايتها تتوافق مع المشهد الذي رأيته بنفسي.. وأنا كسائح في منتصف الأربعين من عمري، وصاحب خبرة طويلة في السفر.. أدرك يقيناً أن كل ما ذكَرَتْه يحدث على أرض الواقع، خصوصاً في الدول الفقيرة.. الخارجة لتوها من الحروب.

سألتها:

- وماذا لو انقطعت شرايينك؟

أجابت:

- معظم العاملات في هذه المهنة متدربات على طُرق عديدة لإنقاذ أنفسهن من الزبائن المعتلين نفسياً، والمنحرفين جنسياً.. ومنها هذه الطريقة!

أعادت تغطية بطنها، وأكملت:

- لا تظن لحظةً أن بائعات الهوى أكثر وضاعة ممن يستغلون معاناتهن، ويشترون أجسادهن، ويتفنون في إذلالهن، وتعذيبهن، وانتهاك كرامتهن.. الجنس سلعة.. لها بائعة، ولها مشترٍ..

الطرفانْ شريكان في الجريمة.. لكننا الحلقة الأضعف دائماً، وعندما نُلعن لا يتعاطف معنا أحد.. ولو أردت الحقيقة.. مشتري الهوى أكثر وضاعة من بائعته.. فهو يشتريه لإرضاء نفسه المريضة.. أما هي، فتبيعه للحصول على مال هي في أمسِّ الحاجة إليه.. ليس دائماً طبعاً.. لكنه دافع حقيقي، وموجود في معظم الأحيان.. ومعظم من أعرفهن يمارسن هذه المهنة وهن كارهات لها، ولو وجدن بدائل أفضل لما ترددن لحظة في تركها.

سكتت برهةً، ثم سألتني وكأنها ستبوح بسر:

- هل تعرف كم فتاة ماتت على يد زوار هذا الحي؟

- لا!

- تسع فتيات، إحداهن ألقى بها سائح مخمور من النافذة!

- وماذا فعلوا بالسائح؟

- سمعت أنه عاد إلى بلاده بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال.. جزءٌ صغيرٌ منه ذهب لأطفال القتيلة!

- ولماذا تحتملن كل هذا الظلم والهوان؟

- ليس أمامنا خيار آخر!

- وهل جميع الفتيات اتجهن لهذا الطريق؟

- معظم بائعات الهوى في هذا الحي ضحايا ظروفٌ قاهرة مررن بها، ولو عشن في ظروف طبيعية لرأيتهن في أحوال مختلفة تماماً.. أنا مثلاً.. كنت من أوائل الطالبات في كلية الصيدلة، لكن عندما قامت الثورة، واندلعت الحرب الأهلية.. وجدت نفسي مع شقيقتي التي تصغرني بسنتين أمام خيارين لا ثالث لهما.. إما الإقامة في معسكرات اللاجئين على الحدود مع الدول المجاورة، أو الفرار إلى العاصمة التي كانت أكثر استقراراً وأمناً من القرى والأرياف.

قاطعتها..

- وأين عائلتك؟

أجابت، والدموع تتجمع في عينيها:

- قضوا جميعاً تحت القصف.. أبي وأمي وأخي الأكبر، وأختي الصغرى التي لم تكمل العاشرة.. كنت في سكن الطالبات يومها، وفي ذلك الأسبوع بالتحديد كانت أختي التي تصغرني بسنتين ترافقني إلى الجامعة لتقديم أوراقها في كلية الطب.. أنا من عائلة فقيرة جداً، وشبه مُعدمة.. أبي عاجز، وأمي لا تعمل.. وأخي الأكبر لم يكمل دراسته، ولا يستمر في الوظائف البائسة التي يُدبّرها له والدي أكثر من سنة واحدة..

لكن دَرجاتي العالية أهلتني للحصول على منحة دراسية من مؤسسة دولية تُعنى بدعم الطلبة المعوزين، وكنا نأمل أن تحصل أختي الصغرى على منحة مماثلة.. لكن جميع أحلامنا تبددت مع اندلا ع الحرب، وانفلات الأمن، وتدهور الأوضاع.

قلت مواسياً:

- أنا حزين من أجلك ريتا، والتفاصيل التي ذكرتها للتو كانت خارج توقعاتي تماماً!

ردت، وكأنها اعتادت على عبارات المواساة:

- أعلم ذلك، ولا ألومك عليه.. فأنا انغمستُ في عالم الرذيلة بسرعة مذهلة، وبات كل من يراني يظن أني وُلدت، وترعرعت فيه.. لكنْ لذلك أسبابٌ عديدة، لو أنصتَّ لها بتجرد، فقد تتفهم موقفي بعض الشيء، وتعذرني فيه!

- أكملي ريتا، كلي آذاناً مُصغية.

- في الأيام الأولى من تعليق الدراسة كانتْ لدينا آمال عريضة باستئناف الدراسة في أي لحظة، ولم نتخيلْ أن مستقبلنا سيتوقف عند هذه النقطة.. لكن بعد مرور سنة كاملة، بدأنا نستوعب الوضع الجديد الذي وجدنا أنفسنا فيه..

وكنا أمام خيارين -كما أخبرتك قبل قليل- إما اللجْوء إلى مخيمات اللاجئين على الحدود مع الدول المجاورة، أو الفرار إلى العاصمة، والبحث عن مصدر رزق، ولو لفترة مؤقتة.

- ولماذا لم تلجئي إلى المخيمات؟

سألتني ونظراتها ملأى بالكلام:

- هل جربت مرارة الانتقال من وطن رحب إلى مخيم على الحدود..؟ هل جربت أن تتحوّل فجأة من مواطن معزز مكرم في بلدك إلى لاجئ في مخيم تُنفق عليه مؤسسات دولية ودول مانحة..؟

- لا.. لم أجرب.. ولا أريد أن أجرب!

- إذن دعني أكمل!

- تفضلي.

- في الأيام الأولى.. اعتمدت على مدخراتي من أموال المنحة.. وعندما نفدَتْ.. بُدأت أستعين بمساعدات الصديقات من العائلات الميسورة.. ولم نكن نتوقع أن تستمر هذه المساعدات إلى ما لا نهاية بطبيعة الحال.. خصوصاً في ظل الظروف الصعبة التي كانت البلاد تمر بها.. والتي دفعت حتى العائلات

الميسورة إلى الاقتصاد في النفقات، والميل إلى تخزين المؤن وادخار الأموال.

- وكيف تصرفتما؟

- مشكلتنا لم تكن خاصة، فثمة فتيات كثيرات واجهن الظروف نفسها.. البعض منهن اتجه للخدمة في بيوت الأسر الثرية، والبعض اتجه لتقديم خدمات ترفيه للرجال المتنفذين.. الخيار الأول كان متاحاً للجميع.. أما الثاني، فكان للجميلات فقط، وكلما ازدادت التنازلات، ارتفع الدخل.

- وهل كانت هناك أسر ثرية، ورجال متنفذون في تلك المرحلة الصعبة؟

- طبعاً، وفي كل المدن تقريباً.. ويلات الحرب لا تمس الجميع بالدرجة نفسها.. وغالباً ما تكون وطأتها على الأسر الفقيرة ومحدودة الدخل أشد.

صمتت قليلاً وكأنها تذكرت شيئاً.. ثم استأنفت الحديث:

- لي صديقة تمكنت من السفر في أول أسبوع من توتر الأوضاع، ولم تعد حتى اليوم.. وتعيش في منفاها الأوروبي مع عائلتها المتنفذة في أحسن حال، بفضل أرصدة والدها،

وأخوالها، وأعمامها المتراكمة في الخارج.. وعند عودتها ستجد أرفع المناصب في انتظارها.. وستدور المطابع لتكتب تاريخاً جديداً للمرحلة، يظهر فيه رجال عائلتها في صور الأبطال المناضلين، ولن يتذكر أحد مأساة أبي وأمي وأخي الأكبر، وأختي الصغرى، وملايين الفقراء غيرهم.

مسحت دمعة انسابت على خدها الأيسر بظهر كفها، وأكملت:

- للحرب سياط يا سيدي.. من حديدٍ ونار على الفقراء، ومن حريرٍ ناعم على الأغنياء وأصحاب النفوذ!

- أفهم ما تقولينه جيداً ريتا، وأقدر معاناتك.. لكن كيف تقبّلتِ فكرة المتاجرة بجسدك، وأنتِ الطالبة المتفوقة.. صاحبة الطموح؟

- مهما كنت طيباً، ومتسامحاً، ومتفهماً لظروف الآخرين.. فلن تشعر بما مررنا به، ولن تتفهم مواقفنا.. مهما حاولت، ومهما تظاهرت.. أن تسمع عن الحرب، وأن ترى صورها

الحزينة في الصحف والمجلات، وأن تشاهد لقطاتها المؤلمة في القنوات الفضائية.. ليس كمن يعيش وسطها، ويكتوي بنيرانها ليل نهار، ويذوق مرارات الفقد، والفقر، والتشرد!

ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة، وقالت:

- حتى الانتهازيون الذين يستغلون حاجتي للمال، ويشترون جسدي بثمنٍ بخس، ويستمتعون به حتى الثمالة.. لا يتورعون عن توجيه اللوم لي بعد أن يستفيقوا من سكرتهم.. فأسمع منهم نصائح لا يمكن أن تكون صادقة، أو نابعة من قناعات حقيقية!

- ماذا يقولون؟

- "ابحثي عن وظيفة أخرى تحفظ لك شرفك وسمعتك".. "اكسبي رزقك بعرق جبينك".. "لو تعملين خادمة في البيوت أشرف لك من هذه المهنة الوضيعة".. "ألا تخافي الله؟".

تغيرت ملامحها، وتساءلت بقهر:

- لو كان شرفنا يهمهم.. لماذا ساوموا عليه؟

لو كانوا يخافون الله.. لماذا استباحوا أعراضنا؟

أجبت:

- كلهم كاذبون ومخادعون ريتا!

رمقتني بنظرة مفاجئة، وقالت:

- وماذا عنك؟

- أنا لم أستغل ظروفك، ولم أساومك على جسدك!

عادت لتسألني من جديد، وبطريقة أكثر إلحاحاً:

- من أنت؟

الحب المقدس

كانت مصرة على معرفة من أنا.. وكنتُ أنا مصراً على معرفة من هي؟

الإصرار الأول تشكل في ذهنها عندما ساعدتها لوجه الله، دون أن أطلب منها شيئاً.

والإصرار الثاني تشكل في ذهني عندما شهدت لمصلحتي أمام الشرطي ضد طبيبة أنقذت حياتها.

إحساس عميق بداخلها يقول إن هذا الرجل مختلف عن بقية السياح الذين يرتادون هذا الحي.. وإحساس يقيني بداخلي يقول إن هذه الفتاة مختلفة عن بقية النساء اللواتي انجرفن في هذا الطريق.

بعد صمت قصير، قلت:

- أنت جميلة ريتا، ولا ينقصك شيء.. لكنْ ليس كل الرجال سواء.. هناك رجال يشترون الحب، وهناك آخرون يقدسونه.. وأنا من النوع الثاني.. أقدس الحب!

- ماذا تعني؟

- الحب عندي مرتبط بالمشاعر، ومتى غابت المشاعر لم يبقَ للممارسة معنى!

- لم أفهم!

- لا يمكن أن أستمتع بممارسة الحب مع امرأة لا تُكن لي أي مشاعر.. ولا أنتظر منها أن تستمتع معي وأنا لا أكنُّ لها أي مشاعر.. فكرة أن تقوم امرأة فقيرة ببيع جسدها لرجل مقابل مبلغ من المال يدفعه لها.. أراها حقيرة جداً، وتنحدر بالنفس الإنسانية إلى الحضيض.. أنا لا أكلمك الآن بمنطق الحلال والحرام.. فأنا إنسان عادي، غير متدين.. أنا أكلمك عن قناعة أؤمن بها، ومبدأ أسير عليه!

- قُل لي بصراحة: هل تراني نجسة؟

- لا تحشريني في زوايا ضيقة ريتا، فأنا لا أحكم على أحد!

- إذن.. هل تعتبرني معذورة في ما أفعل؟

- لا، طبعاً.. لكني لا أحب أن أتقمص دور الواعظ!

- للمرة الثالثة أسألك: من أنت؟

مددتُ يدي لها مصافحاً، وأجبت:

- أنا مراسل تلفزيوني.. عملت لفترة مع قنوات تلفزيونية عربية وأجنبية.. أما الآن فأعمل لحسابي الخاص.. أعدُّ تقارير متعوباً عليها، وأبيعها لمن يدفع أكثر.. اسمي عبدالوهاب، وعمري 43 سنة.. متزوج، وأب لطفلتين.. جئت إلى هذا الحي لأكتب تقريراً عن تجارة الرقيق الأبيض، وما آلت إليه أوضاع السكان

بعد الحرب.. سررتُ بالتعرف إليك، والحديث معك!

أزاحت يدي الممدودة لمصافحتها، وسألتني:

- ألهذا السبب أسعفتني، وسمحت لي بالمبيت عندك؟

- لا، لا.. ريتا.. الدافع الإنساني هو الأقوى من دون شك، لكن دافع المصلحة الخاصة موجود أيضاً، ولن أكون صادقاً لو أنكرته!

قالت، وهي تُعيد سحب الغطاء على جسدها:

- أُخرُجْ!

- لماذا؟

- أريد أن أنام!

- وبقية الحكاية؟

- سأحكيها لك بعد أن أستيقظ!

مثلما توقعت مسبقاً.. ريتا مفاوضة ذكية، أكثر منها لصة أو بائعة هوى.. ها هي تحاول كسب المزيد من الوقت، والاستفادة بأكبر قدر ممكن من الوضع الجديد!

لم أمانع في تمديد إقامتها لساعات قليلة.. لكني طلبت منها المبيت في الصالة، ونمت أنا على السرير.. فحكاية النزيف الأخير أصبحت موضع شك هي الأخرى، وما فعلته الطبيبة معها داخل الحمام يبقى في علم الغيب!

صباح جديد

ست ساعات كاملة استغرقتُها في النوم.. من الخامسة فجراً حتى الحادية عشرة صباحاً.. أو بالأحرى ظهراً.. وكنت سأستمر أكثر لولا أشعة الشمس المنتشرة في جميع أرجاء الغرفة.

أريد أن أخرج، لكن في الوقت ذاته لا أريد أن ألتقي بريتا.. أريد أن أرى أشخاصاً آخرين غيرها، وغير أيوب، وغير الطبيبة المريبة، وغير الشرطي السمين.. أريد أن أرى أشخاصاً طبيعيين أتحدث معهم في أمور أخرى تتعلق بالمدينة، وطبيعة الحياة فيها بعد الحرب.. وعن أحلام الشباب، وتطلعاتهم للمستقبل.. وعن القلوب الموجوعة.. كيف تداوت، وعن الأرواح المعذبة، كيف تماثلت للشفاء.

أريد أن أستنشق هواءً نقياً، وألتفح بشمسٍ دافئة، وجهاً لوجه، وليس عبر زجاج النوافذ.. هذه المدينة ودودة، لكنها جريحة وحزينة ومتعبة.. تحتاج إلى من يسأل عنها، وينصت إليها.

المدن مُثل البشر، إذا طالت معاناتها، لا تتشاق إلا بالبوح للأصدقاء والمحبين.

الباب يُطرق.. "ريتا ستفتح".. (قلت في نفسي).. دخلت إلى الحمام، تذكرت شيئاً.. خرجت بسرعة.. "كيف ستفتح الباب، وهي لا ترتدي إلا قميص نوم؟".

صحت من وراء الباب:

- أنا سأفتح.. انتظري قليلاً!

ردت:

- إنه عامل المطعم المجاور.. تعالَ لنفطر معاً!

"كيف فتحت له وهي بذلك المنظر؟".. سألت نفسي، ولم أعثر على إجابة!

فتحتُ الباب قليلاً، ومددت رأسي للخارج.. لا أثر لها في الصالة.. سرت إلى المطبخ، وفتحت الباب بحذر.. رأيتها واقفة في المنتصف.. توزع أطباق الفطور على الطاولة.. فول بالطحينية، فاصولياء، بيض مسلوق، وآخرْ "أومليت".. جبن حلوم، مربى، خبز.. صحن كنافة، وعصير أناناس.

- صباح الخير.

- صباح الورد.

كان وجهها مشرقاً، ومفعماً بالحياة.. غيرت رأيي.. اللقاءات في النور أجمل.. وضياء الشمس أحب إلى النفس من عتمة الليل.. ما دامت القلوب سليمة من الداخل، ولا تنوي سوءاً.

كانت ترتدي "روب" حمَّام سماوياً فاخراً، وتلفُّ شعرها المبتل بـ"فوطة" مطرزة.. وتفوح من جسدها رائحة صابون ثمين، وعطر صباحي منعش.

ثمة شيء في مظهرها المحتشم اليوم أشد إغواءً من مظهرها المبتذل أمس.. لا أدري ما هو؟!

تسارعت دقات قلبي، وأحسست بدوخة لذيذة.. رائحة جسدها أسكرتني، لكني تماسكت.. منظر "الروب" وهو يلتف بإحكام حول خصرها المرسوم كان أشد فتنة من صدرها المكشوف، وساقيها العاريتين.

سألتني وهي تمد يدها إلى صحن الفاصولياء:

- ألا تشعر بالجوع؟

أومأت برأسي دلالةً الموافقة.. لا أدري لماذا عجزت عن النطق بـ "نعم"!

أشارت بعينيها إلى الكرسي المقابل لها، وقالت:

- تفضل!

لم أترددْ في الموافقة هذه المرة.. سحبت الكرسي، وجلست.
سألتني، وهي تمدُّ لقمة الفاصولياء إلى فمي:
- هل نمت جيداً البارحة؟
التهمت اللقمة، وأجبت:
- كنت أشبه بالميت!
ضحكت، وقامت من مكانها لتُعد القهوة.. وأنا واصلت التهام الأطباق، واحداً بعد آخر.
حركتها في المطبخ توحي بأنها تعرف المكان جيداً، وتعرف جميع مشتملاته.. الشاي.. القهوة.. المكروويف.. إبريق التسخين.. طولها 175 سنتيمتراً تقريباً، ووزنها ما بين الخمسين والستين كيلوغراماً.. خصرها نحيل، وطريقة مشيتها فاتنة.
اليوم أراها بمزاج رائق، عكس البارحة.. العين هي هي.. لكن الحالة النفسية تختلف.
قالت وهي تضع الركوة فوق الموقد:
- لقد حلمت بك البارحة!
قاطعتها:
- لا تُكملي!
- لماذا؟
- أخاف من الأحلام!

- إنه حلم مثير، ولذيد.. من النوع الذي لا تود أن تستيقظ منه!

- مهما كان.. لا تقوليه!

بدت عليها علامات الضيق، وتشاغلت بإعداد القهوة.. وضعت كأسين من الماء في الركوة، وأشعلت النار تحتها.

- تحبُّها "سادة".. أليس كذلك؟

- نعم.

تركت الماء يسخن لمدة دقيقتين تقريباً، ثم أضافت أربع ملاعق كاملة من القهوة.. وكانت ترفع الركوة من حينٍ لآخر عن شمعة الموقد.. ثم تعيدها مرة أخرى.. ثلاث مرات تقريباً.. ثم رفعتها نهائياً، وأطفأت النار.

سألتني وهي تسكب القهوة في الكوب:

- ماذا تريد أن تعرف عن حيّنا المشؤوم؟

رفعت رأسي عن الأكل، وقلت:

- كل شيء!

بنبرة ساخطة، ردت:

- لن أبوح بكل شيء!

خطرت في بالي فكرة، فلم أتردد في عرضها.

- ما رأيْك أن نخرج في نزهة؟

ردت، وهي تناولني الكوب:

- مستحيل!

لم أسألها عن سبب رفضها القاطع، وغير المبرر للفكرة.. فالمقيمون في هذا الحي ليسوا أشخاصاً طبيعيين حتى أتوقع منهم تصرفات طبيعية.. تركتها على راحتها.. إن رغبت في البوح فأهلاً وسهلاً، وإن لم ترغب فلن أجبرها.. واصلت الأكل بشهية مفتوحة.. فالأكل لذيذ، وبطني لم يمتلئ بعد.

سألتني وهي تسكب القهوة في الكوب الآخر:

- هل سمعت عن زبيدة؟

- نعم.

- أين؟

- أيوب ذكر اسمها البارحة، وسائق التاكسي أيضاً.

- هل تعرف من هي؟

- لا!

- خمّن؟

- ربما صاحبة الشقة، أو العمارة.

- لا، لا.. إنها أبسط من أن تمتلك عمارة أو شقة!

- من هي إذن؟

- فتاة في مثل عمري، جاءت من الريف قبل ثلاث سنوات تقريباً، وأقامت في هذا الحي، لكنها اضطرت للهروب بعد أن اتُّهِمَتْ بقتل ثلاثة سياح قبل تسعة أشهر!

ساد بيننا صمتٌ قصير.. ثم تجرأتُ وسألتُها:

- وهل قتلتهم فعلاً؟

- نعم!

بلعت ريقي..

- كيف!

- بالسم!

طعم القهوة ازداد مرارة، وشعرت بجفاف شديد..

- وأين قتلتهم؟

- في شقة السائح التي هربتُ منها البارحة.. على طاولة المطبخ أعدت الطعام المسموم.. وفي الصالة قدمته لهم.. وفي الصباح ضجت العمارة بخبر مقتلهم.. أحدهم وجدوه ميتاً على السرير، والآخر ممدداً في وسط الصالة.. والثالث تمكن من الخروج.. لكنه سقط قبل أن يصل إلى الدرج!

تذكرت تعليق أيوب البارحة، وقلت:

- لذلك أسموها شقة زبيدة!

- ليست الشقة فقط.. العمارة بأكملها حملت اسمها!

خوف

توقفت عن ارتشاف القهوة، وأعدت الكوب إلى الصحن.. نظرت إلى بقايا الطعام على الطاولة، وشعرت بوخزٍ عميق في المعدة.. تراجعت إلى الوراء قليلاً، وضغطت بحذر على موضع الألم.. الوخز يزيد، ومساحة الألم تتسع.

الدوخة اللذيذة تلاشت، والانجذاب تحول إلى خوف.. حاسة الشم عندي تعطلت تماماً، والصُّوَر في عيني اهتزت، وتضببت.. "لماذا فعلتِ ذلك وأنا لم أضرك؟".. (قلت في نفسي وأنا أنظر إلى ريتا).

أحسسْتُ بيدها تلامس رأسي، وصوتها يستعيدُني مما أنا فيه:

- أنت بخير؟ تعال معي إلى الصالة!

لم أتحرك، ولم أنطق بكلمة.. ظللت جالساً على الكرسي، وأضغط بكلتا يديَّ على بطني.

مسحت على ظهري برفق، وقالت:

- ما تشعر به مجرد وساوس، لم أضع لك شيئاً في الطعام!

ضمتْ رأسي إلى صدرها، واحتضنتني بقوة.. وظلت تمسح على ظهري صعوداً، وهبوطاً.

رفعت رأسي عن صدرها، وسألتها:

- لماذا لا تأكلين؟

تناولت الكوب الذي فرغت منه، وشربت القهوة المترسبة في قاعه.. ثم غمست قطع الخبز المتناثرة أمامي في الفاصولياء، وأكلتها.. لم تترك طبقاً مددت يدي إليه إلا وتذوقت منه.

- ها أنا أكلت من بقايا طعامك، ولم يحدث شيء!

بدأت أعود إلى طبيعتي شيئاً فشيئاً، وكأني أتعافى من تأثير سحر!

- أنا آسف ريتا.. لكني شعرتُ بالتوعُّك فعلاً!

- هذا لأنك خائف جداً مني، وتتوقع الخطر في أي لحظة!

- أليس من حقي أن أخاف؟

- سيكون خوفك مبرراً لو كنت من نفس نوعية السيّاح الذين قتلتهم زبيدة!

- وماذا فعلوا حتى تنتقم منهم بهذه الطريقة؟

قامت لتغسل الصحون، وقالت:

- لم يكتفوا بتحطيمها من الداخل.. فمزقوها من الخارج أيضاً!

- كيف؟

- اتفقت مع أحدهم على قضاء ليلة معه مقابل مبلغ معين.. وعندما دخلت الشقة، فوجئت بمثل ما فوجئت به البارحة.. كان برفقته اثنان من أصدقائه.. حاولت الهرب.. لكنها لم تنجح.. فتعاون الثلاثة عليها، وجلدوها بأحزمتهم حتى انهارت، واستسلمت.. وعندما فرغوا منها.. أحكموا وثاقها بسلك كهربائي، وأطفؤوا على ظهرها 21 سيجارة.. حتى تحول ظهرها الناعم الجميل إلى لوحة من الثقوب!

- لماذا فعلوا ذلك؟

- لا أحد يعلم!

- وما تفسيرك أنت؟

- كل ما لا يستطيعون ممارسته مع زوجاتهم، يعوضونه من خلال ممارسته مع بائعات الهوى!

صمتَتْ قليلاً، ثم أكملت:

- أذكر أن شاباً دعاني إلى شقته، وطلب مني أن أستثيره بأساليب مُبتذلة، دون أن أدخل معه في علاقة كاملة.. سألته إن كان متزوجاً، فأجاب: "نعم".. سألته إن كانت زوجته جميلة، فأجاب: "نعم".. سألته إن كان يطلب منها الممارسات نفسها، فغضب.. وقال: "عيب"!

الأُختان

تركتها تُكمل عملها في المطبخ، وعُدت إلى الصالة.. جلست لحظات أفكر في كلامها الصادم، والغريب.. لفتت انتباهي النافذة الكبيرة المطلة على الطريق العام، فتوقفت عندها لألقي نظرة على الخارج.

المنظر في الخارج كئيب، وخالٍ من البهجة.. مبانٍ عشوائية، قديمة، ومتهالكة.. ورش حدادة.. مناجر.. كراجات تصليح سيارات.. مخازن.. عمارات مهجورة.. تظهر على بعضها آثار الرصاص والقصف.

والأهالي يمارسون حياتهم بأقل قدر من السعادة والتفاؤل.. لمحت ذلك بوضوح في وجوههم العابسة، وخطواتهم المتثاقلة.. أما الشباب فكانوا يتسكّعون في الحارات والطرقات، غير عابئين بالحاضر، ولا مبالين بالمستقبل.

جاءني صوتها من الخلف:

- إلامَ تنظر؟

التفتُّ ناحية الصوت، فرأيتها قادمة من المطبخ حاملة معها حقيبة زرقاء داكنة.. تتوسطها علامة "دولتشي آند غابانا".. لا أدري من أين أحضرتها.. ولا أدري أيضاً من أين جاءت بـ"الروب"، والفوطة، ومستحضرات التجميل، والعطر، والصابون، والنقود التي اشترت بها الفطور.

أجبت:

- أتأمل المنظر في الخارج!

- لن ترى أشياء مهمة من هذه الزاوية!

- لماذا لا تأتين؟

- لا أريد!

جَلَسَتْ على الأريكة، فانكشفت ساقها اليسرى إلى منتصف الفخذ.. أخرجت مبرداً خشبياً من داخل الحقيبة، وشرعت في "صنفرة" أظفارها.

سألتها:

- من أين أتيت بهذه الأشياء؟

أجابت دون أن ترفع رأسها:

- أحضرتها الطبيبة التي أسعفتني البارحة!

- أحضرتها معها.. أم أخرجتها من مخبئها داخل المطبخ؟

رفعت رأسها هذه المرة، وسألتني:

- هل كنت تتلصص علينا؟

- على الصالة فقط!

- وماذا رأيت؟

- رأيت الفتاة المتشحة بالسواد تخرج بكيس من داخل المطبخ..

فكرتُ قليلاً، ثم أضفت:

- ورأيتها تنظف الصالة من آثار الدم، وهي بملابسها الداخلية فقط!

ابتسمَتْ، وقالت:

- خلعت ملابسها لكيلا تتسخ بالدم!

- أعلم ذلك، لكن لماذا تنظف الشقة من الأساس؟

- لأنها أختي الصغرى، طالبة في كلية الطب!

- أختك طالبة في كلية الطب، وأنتِ بائعة هوى؟

- بائعة الهوى، هي من تنفق على طالبة الطب.. ولولا جسدي الذي أتكسب من ورائه، لكانت اليوم تخدم في البيوت!

صمتت قليلاً، ثم أضافت:

- هي حاولت كثيراً أن تتكسب من وراء جسدها، لكنها لم تجد زبائن!

حاولت استعادة منظر أختها وهي بملابسها الداخلية.. فخذان سمينتان مليئتان بـ"السيلوليت"، وبطن مترهل.. لكن ملامح الوجه لم تكن واضحة.. فالضوء في الصالة كان خافتاً للغاية، ومنطقة الجلوس التي كانت تنظفها بعيدة نوعاً ما عن غرفة النوم.

إنها لا تشبه ريتا على الإطلاق، ولا تملك واحداً في المئة من جمالها.

أغلقتُ النافذة، وقلت:

- أحتاج إلى أن أخرج قليلاً.. لا يمكنني البقاء هنا طوال الوقت!

- أنا أرى ذلك أيضاً!

- ومتى ستغادرين؟

- لا تقلق.. عندما تعود من جولتك لنْ تراني على الأغلب!

- لكنَّ هناك شيئاً أريد أن أعرفه قبل أن أخرج!

- ما هو؟

- زبيدة.. لماذا جاءت إلى هنا؟

القاتل

زبيدة جاءت من الريف إلى هذا الحي (أقول لها).. وتاجرت بجسدها كما فهمت من كلامك لتحصل على المال.. وساعدها على ذلك ذكاؤها، وجمالها الفائق.. وعندما تعرضت للعنف والإذلال والقهر على يد ثلاثة سياح ساديين تحولت إلى كائنة أخرى.. متوحشة.. لم تتردد في تسميمهم، وإزهاق أرواحهم دفعة واحدة.

هذه الحكاية تحتاج إلى المزيد من الشرح ريتا، وسأكون ممتناً لكِ لو أسهبتِ قليلاً في الحديث عنها.. ولدي الاستعداد للدفع مقابل هذه المعلومات.. بل أنا أصر على ذلك.. ولا أقبل أن آخذ شيئاً دون مقابل.

سألتني:

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

- من البداية.. لماذا جاءت؟

- جاءتْ هاربة من أسرتها.. من أخيها الأكبر تحديداً.. فهي نشأت في أسرة فقيرة، معظم أفرادها غير أسوياء.. أبوها قتل أختها المعاقة ليتخلص من عبئها.. زبيدة كانت نائمة بالقرب منها، وشاهدت عملية القتل كاملة.. لكنها تظاهرت بالنوم، حتى لا تلقى المصير نفسه!

قاطعتها:

- القاتل هنا الأب، وليس الأخ الأكبر!

- صحيح.. لكن والدها لم يفلت بجريمته، وتم القبض عليه في اليوم نفسه، بعد أن شهدت عليه زبيدة أثناء وجود الشرطة في المنزل.. أخبرتهم بكل شيء، ووصفت لهم ما حدث بالتفصيل.. كيف سحب المخدة من تحت رأس الصغيرة، وكتم بها أنفاسها حتى فارقت الحياة.. وتقرير الطبيب الشرعي عضّد كلامها.. ومن يومها تأزم وضع العائلة أكثر.. أخت مقتولة، وأب سجين.. في الأيام التي تلتها انتقلت مسؤولية العائلة إلى الابن الأكبر، ولم يكن أفضل حالاً من أبيه!

- وأين الأم من هذا كله؟

- لعنة الله على أمها!

- استغفري ربك!

- زبيدة تعتبرها شريكة في كل ما حدث!

- كيف؟

- كانت منكسرة أمام زوجها المجرم، ومتغاضية عن ابنها المتنمّر!

- مهما كان.. تبقى أماً!

- الأم التي تتستر على مجرم قتل طفلتها، لا تستحق أن تكون أُماً!

ما لفت انتباهي في حديث ريتا، أنها كانت تُشخّص حالة أكثر من كونها تسرد حكاية.

كل طرف يُفرغ عُقده النفسية في الحلقة الأضعف من دائرته.. الأب أفرغها في أطفاله، والأخ الأكبر أفرغها في أخواته الصغيرات.. الأب والأخ ظلما أقرب الناس إليهما ليُعلنا عن نفسيهما، ويُثبتا للجميع أنهما قويان.

حتى سلبية الأم، وصمتُها عن الظلم الذي وقع على بناتها يمكن تفسيره وفق المنطق نفسه.. إفراغ العُقد النفسية في

الحلقاتْ الأضعف.. حتى وإن تم الإفراغ عبر طرف آخر.. الزوج أو الابن الأكبر.

جاءني صوتها:

- هناك أمر آخر أسهم في مأساة زبيدة!

- ما هو؟

- تفوقها الواضح على أخيها الأكبر، وطموحها المتجاوز لتوقعات العائلة!

- كيف؟

- كانت تحلم بأن تصبح ذات شأن في المجتمع، وكانت في طريقها لتحقيق ذلك.. لكنَّ أخاها أنهى جميع أحلامها بمنعها من مواصلة الدراسة، وإجبارها على الزواج بصاحب المقهى الذي يعمل فيه!

- لذلك هربت.. أليس كذلك؟

- نعم.. لا يوجد أكثر بؤساً من فتاة طموحة تعيش وسط عائلة فاشلة!

- اتضحت الصورة ريتا.. شكراً لك!

- لحظة.. لحظة!

- ماذا؟

- لم أنتهِ بعد!

- تفضلي..

- عندما بدأت زبيدة في مزاولة نشاطها في هذا الحي، كانت تدخر معظم دخلها لتأمين مستقبل أخواتها الصغيرات..

سرحَتْ قليلاً، وتوقفت عن الكلام.. ثم تساءلت:

- هل يوجد صلاح أكثر من ذلك؟

- .....

- ألا تراها جديرة بالتعاطف؟

أشحت بوجهي ناحية النافذة، ثم أجبت:

- ليس كثيراً!

- لماذا؟

- لأنها تقمَّصت أدوار الضحية والقاضي والجلاد في آن معاً، وهذه الازدواجية لا يمكن أن تفضي إلى أحكام عادلة!

- أليس من حقها أن تثأر لنفسها؟

- من حُقها طبعاً.. لكن بالقانون!

ردت وهي ترتجف من شدة الغضب:

- القانون يجامل السُيّاح الميسورين كثيراً، ولا يلتفت لبائعات الهوى!

- هي من اختارت هذا الطريق!

- غير صحيح بالتأكيد، عنصر الاختيار هنا غير موجود.. هي لم تجد طريقاً غيره، فاضطرت للسير فيه!

- .....

- أنا سرت في نفس طريقها.. هل تراني قذرة؟

- للمرة الثانية أقول لك يا ريتا.. ليس من عادتي أن أحكم على الناس.. لكن في جميع الأحوال أنا لا أراك في الطريق الصحيح، وأنصحك بكل صدق أن تختاري طريقاً آخر.. يليق بإنسانة متعلمة، ومثقفة مثلك.. صدقيني.. أنت تستحقين الأفضل!

- أين هذا الطريق الآخر..؟ دلني عليه!

- لا أعرف!

- لا تعرف لأنه غير موجود من الأساس.. الفرص يا صْديقي ليست متساوية.. هناك أشخاص يُولدون وفي أفواههم ملاعق من ذهب.. أحلامهم تتحقق من تلقاء نفسها، دون أن يبذلوا في سبيلها أي جهد.. وهناك آخرون يُولدون وتحت أقدامهم أحجار من نار.. كلما تقدموا خطوة احترقوا أكثر!

قلتُ في نفسي: "صدقْتِ والله يا ريتا.. الفرص ليست متساوية"!

الجريمة

انتهت ريتا من العناية بأظفارها.. وانتهيت أنا من جمع مادة إعلامية لا بأس بها.. عن زبيدة، ومأساتها، والظروف التي دفعتها للهرب من قريتها في الريف، ومزاولة أنشطة لا أخلاقية في المدينة.. لكن ظلت نقطة لم نتطرق لها بعد.. وهي طريقة تنفيذها للجريمة.. فالذي فهمته من كلامها أن جريمة زبيدة لم تكن وليدة لحظة.. وهو أمر جدير بالتوقف طويلاً عنده.. فهناك فرق كبير بين جريمة تُرتكب في لحظة قهر، وأخرى يتم التخطيط لها مسبقاً، والترصد للمستهدفين بها.. وتنفيذها بأعصاب باردة.

الأولى قد يقوم بها أي إنسان في فورة غضب.. أما الثانية، فلا يقوم بها عادة إلا المجرمون العُتاة، المتمرسون في الإجرام.. حتى التكييف القانوني للجريمة، والعقوبات المتعلقة بها تختلف.

سألتها:

- كم تريدين ثمناً لهذه المعلومات؟

رفعت كتفيها، وردت:

- ومن قال لك إني أنتظر المقابل!

تركتها تُنتظر في الصالة قليلاً، ودخلت إلى المطبخ.. سحبت كرسياً إلى طرف النافذة، وصعدت فوقه.. أزحت قطعة من السقف المستعار، ومددت يدي إلى داخل المنطقة المعتمة الفاصلة بين السقف الإسمنتي والسقف المستعار.. أخرجت محفظة نقود كنت أخفيها هناك، ولمحت ريتا واقفة عند الباب تراقب المشهد.

قلت لها دون أن ألتفت:

- في بعض الأحيان نضطر إلى أن نكذب لنحمي أنفسنا!

ابتسمت، وتقدمت باتجاه الطاولة.. سحبت كرسياً آخر إلى طرف الدولاب، وصعدت فوقه.. أزاحت قطعة أخرى من السقف المستعار، تفصلها عن القطعة التي أزحتها أنا خمس قطع، وأخرجت كيساً مليئاً بالملابس.

ردت:

- جميل أنك اعترفت أخيراً بأن الظروف الحرجة تضطرنا أحياناً للقيام بأعمال تتضاد مع مبادئنا!

دهشتي منها كانت أكبر من دهشتها مني، مع أن الفعل واحد.. ربما لأني أتعرض للموقف لأول مرة، في حين تتعرض له هي من حين لآخر.

عرضت عليها خمسمئة دولار ثمناً لحكاية زبيدة، فاعتذرت

عن عدم قبولها.. قلتُ في نفسي: "ربما تطمع بمبلغ أكبر".. ضاعفت المبلغ إلى ألف دولار، لكنها أصرت على موقفها الرافض لفكرة مقايضة المعلومات بالمال.. وقالت كلاماً أشعرني بالحرج أمامها، وأكد لي أنها فتاة نظيفة من الداخل.

- معاناة زبيدة أكبر من أن أتاجر بها.. قد أقبل منك مالاً مقابل خدمات أخرى.. لكنْ في ما يتعلق بقضية زبيدة، فأنا سأعاونك فيها من أجل زبيدة نفسها.. من أجل الخير ذاته.. من أجل الحق.. يكفيني أن يعرف الجميع أنها فتاة صالحة، وأن المصير الذي آلت عليه لم يكن من اختيارها.

جلست إلى جوارها، وسألتها:

- كيف قتلتهم؟

انقبضت ملامحها أثناء الشرح، وكأنها تنتزع التفاصيل من أعماق ذاكرتها..

- بعد أن أفاقوا من سكرتهم في الصباح، واستوعبوا الجريمة التي ارتكبوها في حقها.. حاولوا استرضاءَها بمبلغ إضافي من المال، يفوق المبلغ المتفق عليه مسبقاً.. فتظاهرت بالموافقة، وعادت

إلى شقتنا البائسة التي تتشارك أجرتها معنا، وأخبرتنا بكل ما حدث.. بأدق التفاصيل!

أغمضَتْ عينيها، وقالت بنبرة أقرب للبكاء:

- كنا نعلم مقدار الألم الذي يعتصر قلبها!

لم أعلق.. تركتها تكمل.

- اجتمعت في قلبها مرارات القهر، والأسى، والخوف!

- ممَّ كانت خائفة؟

- المآسي كانت مترابطة.. كل مشكلة تؤدي إلى مشكلة أكبر.. تشوه ظهرها سيؤدي إلى عزوف الرجال عنها.. عزوف الرجال سيؤدي إلى انخفاض الدخل.. انخفاض الدخل سيؤدي إلى عجزها عن سداد رسوم الدراسة، والإنفاق على أخواتها الصغيرات.. وهكذا!

- وأين القانون؟

- لو كانوا يعلمون أن هناك قانوناً سيقف لهم بالمرصاد، ويحاسبهم على أفعالهم.. لما تجرؤوا على ارتكاب جريمتهم.. لكن هذا ما يحدث عندما يتعطل القانون، أو تميل كفته لمصلحة الأقوى، والأغنى.. لا يمكن أن يعيش الناس في طمأنينة، فالناس ليسوا سواسية في ردود أفعالهم.. هناك من

يبلع الظلم ويسكت، وهناك من يخفي قهره في قلبه، ويتحين الفرص لينتقم، ويأخذ بثأره!

- وكيف انتقمت؟

- زارتهم في الليلة التالية، ومعها زجاجة ويسكي مسمومة.. أخذوها منها، وصفقوا الباب في وجهها.. ألم أقل لك إنها ذكية للغاية؟

سألتها، وأنا أتخيل المشهد وكأنه يحدث أمامي:

- ما وجه الذكاء الذي تقصدينه؟

- كانت تعلم أن نفوسهم زهدت فيها بعد أن تشوه ظهرها، لذلك أخفت لهم السم في أكثر شيء يحبونه.. تركتهم يقتلون أنفسهم بأنفسهم، ولاذت هي بالفرار!

الوهم

مؤلمة حكاية زبيدة، ومليئة بالتفاصيل الحزينة.. لو فكرت أن أضع لها عنواناً، فسأختار "انتحار الفضيلة".. فزبيدة قبل أن تهرب من أسرتها، كانت في قمة الفضيلة.. فتاة شجاعة، مثابرة، صبورة، صاحبة طموح، متحررة من دائرة الأنا.. تفكر في الآخرين، قبل أن تفكر في نفسها.. لكنه الفقر، وقلة الحيلة.

عقارب الساعة تقترب من الواحدة ظهراً.. ثمة ساعتان أخيرتان تجمعانني بريتا.. ويبدو أن حكاية زبيدة انتهت عند هذا الحد، ولا يمكن الاستغراق فيها أكثر.

سألتها:

- هل لديك خطة للمستقبل؟

أطرقت تفكر قليلاً، ثم أجابت:

- أفكر في الخروج من هذا الحي، والانتقال إلى حي آخر.. أرقى، وأكثر أمناً!

- لماذا؟

- أحتاج إلى المزيد من المال، لأتمكن من استئجار شقة جديدة.. الزبائن هنا قليلو القيمة، وخطرون.. في الأحياء الراقية، سيكون الوضع أفضل، وسأجني أموالاً أكثر.. هذه المهنة تتأثر كثيراً بالوسط الذي تُمارس فيه.. كلما ازداد وجاهة.. انخفضت المخاطر، وازداد العائد!

- وما خطتك لتوفير المال؟

- المزيد من العمل والمخاطرة!

- في نفس المهنة؟!

- لو ساعدتني في الحصول على عقد عمل خارجي فلن أرفض!

- لماذا لا تكملين دراستك؟

- فات الأوان!

- لماذا؟

- لن أُقبل في الجامعة، بحكم أني مدانة في قضايا آداب!

- وهل كنت ستكملينها، لو كان قبولك ممكناً؟

- دون تردد.. فأنا تاجرت بجسدي لأوفر المال لإكمال دراستي، لكن بعد أن قُبض علي في أول قضية أيقنت أن الحلم انتهى!

- انتهت الحرب الآن، والبلد يستردُّ عافيته شيئاً فشيئاً.. يجب أن تفتحي صفحة جديدة من حياتك.. ما زلتِ شابة!

- وماذا عن سمعتي المتمرغة في التراب؟

- إذا كانت الأخلاق زائفة، فلا تتصوري لحظة أن تكون السمعة حقيقية!

- كيف؟

- السمعة وهم كبير، لا وجود له على أرض الواقع!

- ماذا تقصد؟

- أكثر الفنانات خلاعة عندما تصل إلى أي فعالية، يخرج الجميع في استقبالها.. ويطلبون التصوير معها، ويفتحون لسيارتها البوابة الرئيسة لتصفّها في مواقف كبار الشخصيات.. أما المعلم الوقور.. المتفاني في عمله.. مُربي الأجيال.. عندما يمر في طريق، لا يلتفت إليه أحد!

- لكن هذه الفنانة ستبقى في عيون الناس سلعة رخيصة، ولن يفكر رجل ذو شأن في الزواج بها!

- من قال لك ذلك؟

- هذا الذي أعرفه!

- غير صحيح يا ريتا.. الكثير من الفنانات الجميلات كانوا زوجات سريات لرجال أعمال، ومسؤولين كبار!

- ها أنت قلتها بلسانك.. زوجات سريات!

- بعض هذه الزيجات كانت في العلن!

- قد يحدث هذا مع الفنانات المحترمات، أو العاديات على الأقل!

- وحتى غير المحترمات.. الجمال له سلطة!

- ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول يا صديقتي العزيزة إن صورتك في عين نفسك هي الأهم، وهي الأجدر بالحرص عليها.. أما سمعتك بين الناس، فلا قيمة لها على أرض الواقع.. وعندما تصبحين غنية، أو صاحبة نفوذ.. سيحترمك الجميع رغماً عنهم..

وسيُغمضون عيونهم عن كل مساوئك، وأخطائك.. الناس ليسوا صادقين يا ريتا، فلا تكترثي كثيراً لانطباعاتهم!

- ها أنت تعترف بصداقتي أخيراً!

- ولِمَ لا أعترف؟

- لا تنسَ أني...!

- من كان منا بلا خطيئة، فليرمك بحجر!

عِناق

الساعة تقترب من الخامسة مساءً، والحديث مع ريتا لا ينتهي.. كلما تجاوزنا سؤالاً، انبجست أمامنا عشرة أسئلة.. قامت من مكانها، سارت خطوات باتجاه النافذة.. قالت، وهي تحكم تغطيتها بالستائر:

- سأقول لك شيئاً، ولا تغضب مني.. أرجوك.. لا تعتبرني متطرفة في أحكامي، أو متحاملة على الرجال.. معظم انحرافات المرأة يقف وراءها رجل.. بقصد، أو دون قصد.. الحياة علمتني ذلك، وأنا أثق جداً بالدروس التي علمتني إياها الحياة.. لأنها واقعية، وبعيدة كل البعد عن المثاليات!

لم أتزحزح عن موقفي السابق، وراودني شعور بأنها تحاول أن تنتزع مني قبولاً لوضعها الراهن.. إصرارها على تبرير تصرفاتها يدل على ذلك، فالإنسان الواثق من نفسه لا ينتظر تعزيزاً من أحد.

قلت:

- أتفق معكِ تماماً في أن الكثير من الكلام المثالي، لا يمكن تطبيقه على أرض الواقع.. خصوصاً إن جاء من أشخاص يعيشون في منطقة الراحة، ولم يكابدوا يوماً مرارات الفقر،

والقهرُ، والتشرد.. لكن يجب أن تنفُذي بجلدك من هذا المستنقع القذر، وتأكدي أنك لن تلتقي هنا بأي شخص ذي قيمة!

اقترَبَتْ مني كثيراً، حتى كاد جسدانا يتلاصقان.. خِفت، وتراجعت خطوات إلى الوراء.. قالت، وهي تمعن النظر في عيني، وكأنها ترى شيئاً كانت تبحث عنه منذ زمن:

- ها أنا ألتقي بك في هذا المستنقع القذر.. ولأول مرة منذ سنوات طويلة، أعيش هذه اللحظات مع رجل يخاطب عقلي، دون أن ينظر إلى جسدي!

ضحكت، وحاولت تغيير الموضوع:

- من قال لك ذلك؟

أكملتُ دون أن أنتظر تعليقاً منها:

- عندما كنتِ منهمكة في البحث عن الممنوعات في الشقة، كنت أختلس النظرات إلى مفاتنك من نافذة المطبخ المفتوحة على الصالة!

ردت:

- كنت متأكدة من ذلك، حتى وإن لم أنتبه إليه!

- لماذا؟

- لأنك إنسان!

- وماذا لو قلت إني لم أنظر إليك قط؟

- لن أصدقك.. ولن أرتاح لك!
- لماذا؟
- لأن الملائكة في السماء!
- ألا يمكن أن يرتقي بنا التحضُّر إلى هذا المستوى من الأخلاق؟
- التحضُّر قد يمنعنا من التطفل على الآخرين، وفرض أنفسنا عليهم، لكنه لا ينتزع الغرائز منا، خصوصاً لو كان هناك قبول وترحيب من الطرف الآخر!
- أنتِ فيلسوفة!
- وأنت كذلك!
- مؤسف ألا نراكِ إعلامية، تحاورين ضيوفك بهذا المستوى من العُمق!
- ألم أقل لك قبل قليل إن الحياة ليست عادلة؟
اقتربت مني أكثر.. ألقت بخدها على كتفي، وطوقت خصري بذراعيها.. اعتصرتني، كما تعتصر العروس الجديدة حبيبها الراحل.. بكت على صدري، كما لم تبكِ من قبل.
قلتُ وأنا أدفعها برفق:
- سأخرج الآن ريتا، وسأعود في الساعات الأخيرة من الليل..
(أكملت بلهجة حذرة).. مثلما اتفقنا.. أعود، ولا أجدك!
أزاحت ذراعيها عن خصري، وتراجعت قليلاً إلى الوراء.. ظلت صامتة.. لم ترد!

الخرتيت

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً عندما خرجت من الشقة، وتركت ريتا وحيدة فيها.

لا أدري لماذا فعلت ذلك؟

فريتا رغم كل كلامها الفلسفي الجميل، تبقى فتاة غريبة، وغير جديرة بالثقة.

وأنا أهبط السلم، مرَّ بجانبي رجل يُناهز الخمسين.. سمين، وقصير القامة.. يحمل بين يديه أكياساً ورقية بيضاء، تفوح من داخلها رائحة أكل.. لم أنتظر حتى يصل إلى الشقة المجاورة لشقتي لأعرف أنه السائح الذي هربت منه ريتا البارحة.. فلا أحد يسكن في هذا الطابق غيرنا.

استوقفني، وقال:

- هل ما تزال عندك؟

قطَّبت جبيني، وقلتُ:

- من تقصد؟

- زبيدة!

حاولت إخفاء مشاعري وأنا أسمع الاسم.

- من زُبيدة؟

قطَّب جبينه، وغمز لي بعينه:

- ألا تعرف زبيدة؟

استندت إلى "درابزين" الدرج، وقلت بنبرة جادة:

- المعذرة، هل تعرفني لكي تكلمني بهذه الطريقة؟

حاول تلطيف الجو، ورد بنبرة هادئة:

- لا أعرفك، لكني رأيت زبيدة تتسلل إلى شقتك البارحة.. ثم رأيتك، وأنت تدخل الشقة بعدها بدقائق قليلة.. اعذرني على التلصص عليكما من عدسة الباب، لكني كنت خائفاً جداً عليك من هذه المجرمة.. خصوصاً أنك تُقيم وحدك.. على العموم الحمد لله على سلامتك!

بلعت ريقي، وسألته:

- المرأة التي بالداخل زبيدة أم ريتا؟

أجاب بنبرة ناصحة:

- ريتا، سامية، سولاف، نسرين.. كلها أسماء مستعارة لمجرمة واحدة.. اسمها الحقيقي زبيدة!

ثم استدرك، وكأنه تذكر شيئاً:

- هل رأيت ظهرها؟

- لا طبعاً!

- حسناً، أطلُبْ منها أن تكشف لك ظهرها.. وها أنا أخبرك، وأحذرك.. لن تستجيب لك، وقد تتخذ قراراً سريعاً بالتخلص منك!

- ولماذا تكشف لي ظهرها؟

سألني، وهو يغالب ضحكة تكاد أن تنفلت منه:

- ماذا كنتما تفعلان طوال الليل؟

أجبت، بنفس النبرة الجادة:

- كانت جريحة، وأسعفتها.. ثم تناقشنا طويلاً حول قضايا فكرية وإنسانية عميقة!

تحولت الضحكة إلى ابتسامة حائرة، وقال:

- إرحلْ سريعاً من هذا المكان.. هذه نصيحة لا تقدر بثمن.. أنا سأرحل بعد قليل.. لا تفكر مجرد تفكير أن تبيت وحدك في هذا المكان المريب.. ستموت.. أقسم بالله ستموت!

صعد عدة درجات إلى الأعلى، ثم التفت وقال:

- عُد إلى أهلك يا حبيبي، وفي المرة القادمة سافر إلى بتايا.. أوفر لك، وأسلم!

المسكينة

قبل أن أتجاوز مخرج الدور الأرضي، لمحتُ امرأة مسنة تمسح البلاط.. اقتربت منها، وألقيت التحية:

- مساء الخير.

ردت، وهي منهمكة في عملها:

- مساء الورد.

أخرجت من جيبي عشرة دولارات، وأعطيتها إياها.. شكرتني بحرارة، وأخفتها في جيب ثوبها.

ترددت قليلاً، ثم سألتها:

- هل زبيدة موجودة في الأعلى؟

توقفت عن مسح البلاط.. رفعت رأسها، ورمقتني بنظرة مرتابة، وحائرة.. ثم انكبت على وجهها، تواصل عملها دون أن تجيب.

سألتها بنبرة أعلى، وأكثر وضوحاً:

- هل زبيدة في الأعلى؟

توقفت مرة أخرى عن المسح، وقالت بصوت مرتبك، وخائف:

- لا أعرف!

- لا تعرُفين إن كانت موجودة.. أم لا تعرفينها من الأساس؟

- لا أعرف شيئاً!

ثم أخرجت الدولارات العشرة من جيبها، وقالت:

- خذ نقودك، لا أريدها!

أكملت طريقي إلى الخارج، دون أن آخذ النقود.. وبعد عدة خطوات.. جاءني صوتها من الخلف:

- هل أنت متزوج؟

أجبت:

- نعم.

- هل لديك أطفال؟

- نعم.

- كم عددهم؟

- لماذا تسألين؟

تفحّصتني بنظراتها.. من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى.. ثم قالت:

- لا تسأل أحداً عن زبيدة، ولو أردت نصيحتي.. ارحل سريعاً من هذا الحي.. هذا المكان لا يناسب إنساناً نظيفاً مثلك.. هذا المكان للأوغاد، وقليلي القيمة..

أشارت برأسها إلى الدرج، وقالت:

- مثل الخرتيت الذي صعد للتو!

استوقفني كلامها عن السائح، فعدت لأسألها بإلحاح أكبر:

- هل ريتا هي زبيدة؟

تمعر وجهها، وصاحت بضيق:

- ارحل.. ارحل!

لم أتحرك من مكاني هذه المرة، ظللت واقفاً أكرر السؤال بصيغ مختلفة: "هل المشكلة في زبيدة.. أم في الخرتيت؟".. "من اعتدى على الآخر؟".. "زبيدة مجرمة.. أم ضحية؟".. "ممَّ يجب أن أخاف، وأحذر؟".

لا إجابات.. المرأة المسنة منكبة على الأرض تمسح البلاط، وتتجاهل جميع أسئلتي، وكأنها لا تسمعها.

شكرتها على نصيحتها، واعتذرت عن إلحاحي عليها.. وغادرت.

جاءني صوتها مرة أخرى:

- زبيدة مسكينة، لكن لا تقترب منها.. لا تقترب أبداً!

صمتَتْ قليلاً، ثم أكملت وهي تضغط على الممسحة بقوة:

- لا تقترب من أي امرأة جريحة، ليس لديها ما تخسره!

اللئيم

أكملت طريقي إلى الخارج.. الحركة أمام العمارة قليلة جداً.. أكملت طريقي إلى الشارع العام.. أثناء ذلك اقتربت مني سيارة أجرة، يقودها رجل في مطلع العقد الخامس من عمره.. أنزل النافذة، وسألني:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- السوق القديم!

- أين بالضبط؟

- قهوة فريدة!

- 20 دولاراً!

- لا بأس!

ركبت معه، وانطلقنا إلى السوق القديم.. أنا أقلب الصور في هاتفي المحمول، وهو مستمتع بتدخين سيجارة. صوت وردة الجزائرية ينساب من سماعة السيارة، ندياً وشجياً كعادته.. "ذكرت الله في قلبي، رأيت النور في دربي.. حبيب القلب يدعوني إلى الغفران، والتوبِ.. أقوم الليل أذكره، بفيض الحب

والقربِ.. أناديه، أناجيه.. مليكي سيدي ربي.. إذا لم تعفُ إحساناً، فأين أفر من ذنبي".

"ياااااه".. (قلت في نفسي).. كم أنا بحاجة إلى كلمات إيمانية مثل هذه، وبصوتٍ عذب كصوت وردة.

قهوة فريدة مكان مناسب للوصول إلى فتيات ليل من مختلف الأصناف، والأعمار.. وأنا أحتاج إلى مصادر أخرى أقارن معلوماتها بالمعلومات التي أعطتني إياها ريتا، وأجمع منها المزيد من المعلومات في آنٍ معاً.

في الطريق سألني السائق:

- هل تبحث عن فتيات؟

بلهجة صارمة أجبت:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا!

التفت، وقال:

- ما الذي أتى بك إلى هذا الحي إذن؟

وجدتها فرصة سانحة..

أجبت:

- أبحث عن زبيدة!

تلعثم، وارتبك.. خرج عن الحارة الوسطى، ثم عاد إليها.. السيارات على جانبي الطريق تسير بسرعة شديدة، ولا تمنحه مجالاً للانحراف يميناً أو يساراً.. ظل محدقاً في المرآة الجانبية للسيارة، لا يرفع عينيه عنها.. وما إن لمح مسافة كافية على اليمين.. حتى ضغط على الفرامل بقوة، وتوقف على جانب الطريق.

قال:

- انزل!

- أين؟

- هنا!

- لكني أريد الذهاب إلى السوق القديم!

- استأجر "تاكسي" من هنا، وأكمل مشوارك!

- لن أنزل!

- بل ستنزل!

قلت والشرر يتطاير من عيني:

- أمامك خياران لا ثالث لهما، إما أن توصلني إلى السوق القديم.. أو تعيدني إلى العمارة.. لن أنزل هنا!

انصاع أخيراً، وضغط على البنزين بقوة.. ظل صامتاً طوال الطريق، لا يتكلم.. وحدها وردة تشدو بصوتها العذب، لكن لا أحد يُنصت.. بعد عشر دقائق فتح النوافذ الأربع، وعاد للتدخين.. لكن بمزاج متعكر هذه المرة.

سألته بحذر:

- لماذا كل هذا الارتياب من زبيدة؟

أجاب دون أن يلتفت:

- ماذا تتوقع أن يحدث عندما تسأل عن قاتلة متسلسلة!

- أتوقع أن تجيب، أو تعتذر عن عدم الإجابة.. لماذا الارتباك والخوف؟

دخلنا السوق، واقتربنا من قهوة فريدة.. أجاب، وهو يبحث عن موقف لسيارته:

- في كلتا الحالتين سأعرض نفسي للخطر.. أنت لا تعرف زبيدة.. هذه المرأة أغرب وأخطر مما تتصور، ولا أحد بمقدوره أن يتنبأ بتصرفاتها.. قد تبيت معك الليل بطوله تطارحك الغرام، وتنثر على صدرك أشهى القبلات.. وفي الصباح تفتك بك.. حتى رجال الشرطة لم يسلموا منها!

التزمتُ الصمت.. لم أعلق!

التفت، وقال ناصحاً:

- اِرحلْ سريعاً من ذلك الحي، ولا تسأل أحداً آخر عن زبيدة!

مددت يدي بالنقود إليه، وتعمدت أن أعطيه ورقة من فئة مئة دولار.. قلت، وأنا أحدق في عينيه بإصرار:

- لو أوصلتني لمكان سكنها فسأترك الباقي لك!

فتح محفظته على عجالة.. أخرج منها ثماني ورقات من فئة عشرة دولارات.. أعطاني إياها بغضب، وقال:

- اِنزلْ، وإلا طلبت لك الشرطة!

محاكمات غير عادلة

أسير في أزقة السوق القديم.. أذوب في الزحام.. أشعر بطمأنينة كبيرة، وأنا أرى حشود الناس من حولي.. الضجيج في كل مكان.. أفكر في كلام الخرتيت، وأسترجع أحداث الليلة الماضية.. ريتا، وهي تندفع عارية من الشقة المجاورة.. ساقيها الملساوين وهي تسكب الماء على رسغها.. نهديها الثائرين وهي تمسح الأرض.. فخذيها المصطبغتين بالدماء وهي تنزف.. بطنها المصاب بكدمة قوية وهي مستلقية على السرير.. خلال الساعات الماضية رأيت مساحات شاسعة من جسدها المكتمل الأنوثة، إلا ظهرها كانت حريصة دائماً على تغطيته!

أتذكر حديثها الحزين عن عائلتها التي قضت تحت القصف، وعن والدها الفقير المعدم، وأخيها المحبط.. وأختها الصغيرة التي رافقتها إلى العاصمة.. هل كانت تكذب.. أم تتجمل؟

أتذكر حديثها عن زبيدة، وعن أبيها السكير القاتل، وأخيها

الخائبُ المتسلط، وأمها المنكسرة الذليلة.. هل كانت تحكي قصتها الحقيقية؟

أتذكر حديثها عن طبقية المجتمع، وجحود الأصدقاء، وتغير الأحبة.. هل كانت تلتمس الأعذار لنفسها؟

عشرات الأسئلة تتزاحم في عقلي، ولا أعثر لها على إجابة!

كل ما أعرفه الآن أني قضيت ليلة كاملة مع مجرمة خطيرة للغاية.. قتلت عدداً لا أعرفه من الرجال.. استمالتهم بجمالها الآسر، وكلامها المنمق حتى وقعوا في فخاخها.. سقتهم من فيض مشاعرها حتى ارتووا.. وعندما اطمأنوا لها.. أخذت بثأرها منهم.

كانت تختبرهم بطريقة متطرفة للغاية.. تتعمد جرهم إلى الخطأ، لتنفذ فيهم قصاصها.. تلبس الظلم ثوب العدل، حتى يطمئن ضميرها، وتنام مرتاحة البال.. تقتل، وتوهم نفسها بأنها تطبق العدالة.

أنا ما زلت على قيد الحياة لأنني نجحت في اختباراتها.. نصبت لي العديد من الفخاخ لأسقط، وأستحق العقاب..

لكني واصلت النجاح.. ليس لأني إنسان مستقيم.. وإنما لأن الهدف الذي جئت من أجله مختلف.

الرغبات الآثمة لها ارتباط وثيق بالفراغ، وأنا في هذه الرحلة كنت منشغلاً للغاية.

عقلي كان منصرفاً كلياً عن مفاتنها، وكل تركيزه على المعلومات التي يمكن استقاؤها منها.. نجحت، وحميت نفسي، دون أن أسعى للنجاح، ودون أن أتخذ أي تدابير سلامة.

السوق الكبير

قهوة فريدة تعج بالمحتالين، والنشالين، وأصحاب السوابق، وفتيات الليل.. من بعيد لمحت امرأة في مطلع العقد الثالث من عمرها، تُسند كتفها العارية إلى عمود هابط من السقف.. سرت إليها.. لمحتني.. فاعتدلت في وقفتها، وأعادت ترتيب شعرها في عجالة.

وقفت إلى جوارها، وسألتها بصوتٍ خفيض:

- ما اسمك؟

أجابت:

- كاريس.

- هل تقبلين دعوتي؟

- أين؟

- أي ملهى غير مزدحم!

- لكن الوقت ما يزال مبكراً!

- ما رأيك أن أختصر عليك الطريق، وأمنحك أجرتك مقابل معلومة؟

- هل أنت مخبر؟

- لا.. إعلامي!

- ماذا تريد أن تعرف؟

- الصعوبات التي تواجهكم في هذه المهنة..

- أي مهنة؟

- الدعارة!

- وكيف عرفت أني أعمل في الدعارة؟

ابتسمت، وقلت:

- وهل يخفى القمر؟

ضحكت، وقالت:

- كم ستدفع؟

- خمسين دولاراً.

- قليل.

- حوارنا لن يستغرق أكثر من عشرين دقيقة!

- لا مانع إذن!

الأسئلة المباشرة لم تُجدِ نفعاً مع المرأة المسنة، وسائق "التاكسي"..

بمجرد سماعهما اسم زبيدة، تحصّنا خلف جدران فولاذية.. لم يكن من الممكن اختراقها.. حتى بالمال.

الأسئلة غير المباشرة قد تساعدني على اختراق كاريس.. قبل أن تفطن للغرض من ورائها، وتتحصَّن هي الأخرى..

قلت "نبدأ؟".. ردت "هيا".

- متى سلكتِ هذا الطريق؟

- منذ سبع سنين تقريباً!

- يااااه.. فترة طويلة!

- ظروف!

- ما هذه الظروف؟

- غياب زوجي، وتكفلي بالإنفاق على أطفالي الثلاثة!

- ما طبيعة المخاطر التي تتعرضين لها؟

- العنف، والإذلال.. وأحياناً الامتناع عن الدفع!

- لماذا لا تُدافعْنَ عنْ أنفسكنّ؟

- ندافع عن أنفسنا، وننجح في الحصول على حقوقنا في معظم الأحيان!

- هل حدث أن قامت إحداكن بالانتقام من زبون سافل؟

كانت تجيب بسرعة، ودون أن تلتفت.. وكأنها طالبة تختبر حفظها صبيحة يوم الاختبار.. لكن عندما سمعت سؤالي الأخير.. التفتت، وقالت:

- إلامَ ترمي بالضبط؟

تلعثمت، واعترفت بالحقيقة:

- زبيدة!

- ماذا تريد من زبيدة؟

- أريد معرفة رأيك فيها؟

- كم ستدفع؟

- اتفقنا قبل قليل.. خمسين دولاراً!

ضحكت، وقالت:

- هذا المبلغ مقابل التمهيد، واللف والدوران.. أما رأيي في زبيدة، فلن أقبل بأقل من خمسين أخرى ثمناً له.. وبشرط ألا تذكر اسمي في أي تقرير تُعده!

أدخلتُ يدي في جيبي، فغمزَتْ لي بعينها لنغادر المقهى.. خرجنا، ومشينا مسافة مئة متر تقريباً.. أعطيتها النقود،

فأخفتها بسرعة في حقيبتها.. دون أن تعدها.. تلفتت يمنة ويسرة لتتأكد من أن أحداً لم يرَها، وهي تخفيها.

- هاااه؟

- أحب زبيدة أكثر من أمي وأبي.. لا أقول ذلك من باب المبالغة.. فهذه الفتاة التي يخافها الأوغاد، وفرت لنا حماية لم نكن نحلم بها.. قبل انتقامها من السياح الثلاثة الذين أحرقوا ظهرها.. كانت النساء في هذه المنطقة مستباحات.. أما بعدها، فالوضع تغير كثيراً!

- كيف تغير؟

- أصبح الزبون يفكر ألف مرة قبل أن يتجاوز حدوده، أو يُخل باتفاقه المسبق مع الفتاة!

- لكن البارحة، سمعت صراخاً في العمارة التي أقيم فيها!

- قبل حادثة زبيدة.. كان الصراخ لا يتوقف أبداً.. الوضع تحسن كثيراً، لكن المشكلة لم تنتهِ طبعاً!

- هل هي مسجونة الآن؟

- لا!

- لماذا؟

- القانونْ في هذه المدينة يحترم الأقوياء فقط، وزبيدة اليوم أقوى من ألف رجل!

- هل قتلت غيرهم؟

- لا أظن!

- لكن الرجال يقولون كلاماً مخيفاً عنها!

- من هؤلاء؟

- سائح يسكن في الشقة المجاورة لي.. وسائق التاكسي الذي أوصلني إلى هنا!

- هل تراهما رجلين فعلاً؟

- بصراحة.. لا!

- خذها قاعدة.. لا يخاف من أنثى قوية إلا ذكر جبان.. خسيس!

كانت الشمس على وشك الغروب، والجو يزداد برودة.. شكرت كاريس، وأعطيتها مئة دولار أخرى.

قبل أن تنصرف صافحتني، وقالت: "اِرحلْ بسرعة من هذا السوق، ولا تتوغل فيه أكثر".

النساء متعاطفات مع زبيدة، والرجال متحاملون عليها.. هذا

ما خرجت به من هذه الرحلة السريعة، والحوارات القصيرة التي تخللتها.. ابتعدت كاريس وذابت في الزحام، وعدت أنا إلى العمارة.

قبل أن أعبر إلى الباب الداخلي، وجدت أيوب يستبدل مصباح العمود.. سألته إن رأى ريتا، فقال إنه لا يعرف فتاة بهذا الاسم.. سألته إن رأى فتاة بيضاء، طويلة.. شعرها أسود، وعيناها واسعتان.. فابتسم، وقال: "هذه جنيّة.. لا يراها أحد".. سألته إن كان الخرتيت قد غادر، أم لا.. فاكتفى برفع كتفيه للأعلى، ولم يرد.

رأيتُ في حياتي رجالاً حقيرين.. لكنني لم أرَ مثل أيوب.. لا تحصل منه ولو على معلومة واحدة مفيدة.. يُمرر إليك إحساساً بأنه يعرف كل شيء، لكنه لا يُفيدك بشيء.. حتى المال لا يجدي نفعاً معه.. ربما لأنه يحصل على مبالغ أكبر من أشخاص آخرين.. لهم علاقة بما يدور في هذا الحي.

فكرت أن أركل السُلّم الذي يقف عليه، وأمتع عيني بمنظره وهو يسقط، ويتلوى من الألم.. ثم أكتفي بالاعتذار، ومساعدته على النهوض.. لكني استعذت من إبليس، وتراجعت عن الفكرة.

وداعاً زبيدة

قبل أن أغادر الشقة عانقتني ريتا، واحتضنتي في لحظة وداع محتملة.. خرجت عنها، وأنا أراها فتاة جميلة رقيقة.. لم تساعدها الظروف على تصحيح مسارها الخاطئ.. لكني أعود إليها الآن، وفي ذهني تصور مخيف عنها.. مجرمة، قاتلة رجال.. ماكرة، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها.

لو التقيت بها مرة أخرى.. فكيف من المفترض أن أتصرف؟

توقفت لحظات أمام باب الشقة.. ثم انحرفت إلى باب الشقة المجاورة.. ضغطت على الجرس.. لم يرد أحد.. ضغطت مرة أخرى.. لا أحد يرد.. عدت إلى باب شقتي.. تأملته قليلاً من الخارج.. لدي المفتاح، لكني أريد أن أتأكد من أمرٍ ما.. ضغطت على الجرس.. لم يرد أحد.. ضغطت مرة أخرى.. لا أحد يرد.

الحمد لله.. (قلت في نفسي).. يبدو أن ريتا غادرت، ولن أضطر للتعامل معها مرة أخرى.

وضعت أذني على الباب.. لا أسمع شيئاً.. "الحمد لله.. الحمد لله".. كررت في نفسي.

نظرتُ إلى الساعة.. رأيت عقاربها تقترب من الثامنة.. "جميل.. هذا يعني أنها بالفعل غادرت.. فهي كانت تنتظر عتمة الليل، وعتمة الثامنة لا تختلف عن عتمة الحادية عشرة".

أدرت المفتاح في القفل، وفتحت الباب بهدوء.. لا أرى أحداً.. دخلت.. مشيت بحذر.. خطواتي لا تكاد تُسمع.. الصالة في غاية الترتيب، جميع الوسائد في مكانها.. التلفزيون مُطفأ.. الأرضيات نظيفة.

دخلت إلى غرفة النوم، فوجدتها أكثر ترتيباً مما كانت عليه.. فتحت "دولاب" الملابس.. كل شيء في مكانه.. فتحت الدرج الداخلي.. جميع الأغراض موجودة.. تأملت طاولة العطور.. لا شيء مفقود.. فتحت باب الحمام.. وجدت قميصي الذي كانت ترتديه ريتا مغسولاً، ومنشوراً على حافة "البانيو".

"ريتا غادرت".. قلت في نفسي، وإحساس عميق بالوحدة يتملكني.

كم هو غريب هذا الإحساس.. الحنين إلى امرأة لا تأمن معها على نفسك.. جلست على الأريكة التي نامت عليها البارحة.. أفكر في كلامها عن الناس، وكلام الناس عنها.. وأحتار من أصدق؟

رائحة شهية تنبعث من النافذة المفتوحة على الصالة.. نهضت من مكاني، تقدمت إلى المطبخ بحذر.. فتحت الباب.. العشاء جاهز، والأطباق موزعة على الطاولة، ومغطاة بورق بلاستيكي شفاف.

سلطة عربية.. حمص بالصنوبر.. كبة.. كبدة بدبس الرمان.. صحن "مشاوي" مشكلة، وإبريق شاي.

سحبت الكرسي، وجلست أتأمل الأطباق، وأشم رائحتها.. لا شيء يبعث على الريبة.. تذكرت شيئاً.. نهضت من مكاني، وألقيت نظرة على سلة القمامة.. رأيت بداخله أكياساً بيضاء، مكتوباً عليها.. "مطبخ أم رامي".

اتصلت بالرقم المدون على الأكياس.. جاءني صوت فتاة صغيرة.. سألتها: "هل أرسلتم وجبات عشاء إلى عمارة زبيدة؟".. تلعثمت، وارتبكت، ثم أعطت الهاتف لامرأة مسنة.. قالت: "تفضل.. أم رامي معك".. كررت عليها السؤال نفسه.. أجابت بنبرة حادة: "أرسلنا الوجبات إلى عمارة الحاج أنور".. سألتها: "هل هي نفسها عمارة زبيدة؟".. أنهت المكالمة!

عدتُ إلى الطاولة مرة أخرى.. جلست أقلب الأفكار في عقلي.. تذكرت الفطور الذي تناولته في الصباح مع ريتا.. وقلت في نفسي: "لو أرادت تسميمي.. لفعلت ذلك في الصباح".

تناولت الملعقة.. أخذت غَرفة من السلطة.. قربتها من فمي.. ثم أعدتها إلى الطبق مرة أخرى: "ربما أجلت فكرة التسميم إلى الليل.. بعد أن تنصرف، وتبتعد قليلاً".

أصوات خطوات في الخارج.. تصعد السلم، وتقترب شيئاً فشيئاً.. تسارعت خفقات قلبي، وشخصت عيناي.

فجأةً، توقف الصوت.. نهضت لأستوضح الأمر من عدسة الباب.. وقبل أن أصل بخطوات قليلة.. قُرع الجرس.. صحت بفزع: "من؟".. لا أحد يرد.. صحت بصوت أعلى، وأكثر فزعاً: "من؟".. جاءني صوت أيوب بارداً كعادته: "افتح، أريدك في موضوع مهم".

فتحت الباب قليلاً.. لم ينتظرني حتى أفتحه كاملاً.. دفعه بيده، وأكمل طريقه إلى الداخل.. جلس على الأريكة، وأخرج من جيبه ورقة وقلماً.

سألته:

- ما الموضوع المهم يا وجه الشؤم؟

أجاب، وهو يشطب على بعض البنود في الورقة:

- يجب أن تغادر الشقة الآن، وسنعيد لك أجرة الأيام المتبقية!

صحت في وجهه:

- لماذا؟

- الحاج أنور يريد الشقة لأحد أصدقائه!

- والعقد الذي بيني وبينكم؟!

مزق الورقة.. وقال:

- اعتبره غير موجود!

أعطاني ألفاً وثمانمئة دولار، وأمهلني ساعة واحدة لأخلي الشقة.. وقبل أن يصل إلى الباب توقف قليلاً، وألقى نظرة على طاولة المطبخ.. نظرة متأنية.. استغرقت أربع ثوانٍ تقريباً.. ثم فتح الباب، وانصرف.

كل شيء في هذه العمارة غير طبيعي، ولا يمكن تفسيره.. قلبي يقول: "ريتا مجرد ضحية، ولا يمكن أن تضرني".. وعقلي يرد بغضب: "بل مجرمة، ومن السذاجة المفرطة تصديقها، والاطمئنان لها".

أفكر في الظروف التي مرت بها، وأتساءل: "هل امتلكت خيارات أفضل، ورفضتها؟".. ثم أتذكر أن ريتا، هي نفسها زبيدة، وأحتار.. أي الحكايتين أصدق؟

حكاية أهلها الفقراء الذين قضوا تحت القصف.. أم حكاية أبيها القاتل وأخيها المتسلط؟

تركت العشاء في المطبخ كما هو، وعدت إلى غرفة النوم.. فتحت الدرج.. بحثت عن النسخة الثانية من العقد التي أعطاني إياها أيوب مع مفاتيح الشقة.. لمحت كلاماً طويلاً مكتوباً على ظهرها.. جلست على طرف السرير، وشرعت في قراءته:

"عزيزي عبدالوهاب.. آسفة على كل ما حدث.. كنت في أمسِّ الحاجة إلى المال لأعطيه لأختي الصغرى التي أسعفتني البارحة.. هي لا تحبني، ولا تفتخر بي.. ولا تريد أن يعرف أحد أني أختها.. ولولا حاجتها للمال لتركتني أموت.. وأنا على يقين بأنها ستتبرأ مني نهائياً بمجرد تخرجها، واستغنائها.

هكذا هي الحياة يا صديقي.. يأتيك الجحود والنكران من أقرب الناس إليك.. ممن ضحيت من أجلهم، وأعطيتهم كل ما تملك.. هذا شيء.. الشيء الآخر.. سيأتي أيوب بعد

قليل، وسيطلب منك إخلاء الشقة فوراً.. لا تعارضه، ولا تطرح عليه أي أسئلة.. عُد فوراً إلى الفندق.. ولا تفكر بالعودة إلى هذا الحي تحت أي ظرف.. وقبل أن أنسى.. يوجد عشاء في المطبخ.. اعذرني على بساطته.. لو كنت أملك المزيد من المال، لأعددت لك وليمة تليق بك.. أتمنى لك حياة سعيدة، هانئة.. مليئة بالسعادة، وراحة البال.

زبيدة".

تنهّدت أكثر من مرة، وأنا أقرأ رسالتها القصيرة.. وازدادت حيرتي، وتعمقت أسئلتي:

متى تحضر الأخلاق؟ ومتى تغيب؟

وما الفضيلة؟

وهل السُّمعة حقيقة أم وهم؟

ولماذا تُقدّم النساء قرابينَ لإرضاء العقول المريضة؟

عدت إلى المطبخ.. ألقيت نظرة على العشاء مرة ثانية.. استرجعت الكلام المكتوب في رسالتها، واسترجعت معه كلام الخرتيت، وسائق "التاكسي".. حملت الأطباق، وأفرغتها واحداً تلو الآخر في سلة القمامة.. غسلتها بالصابون أكثر من مرة، وأعدتها إلى مكانها على الرفوف.. حزمت حقيبتي، وعُدت إلى فندق المدينة.

اليوم الأخير

في الطريق من فندق المدينة إلى المطار.. سألت سائق "الليموزين" عن زبيدة، فقال إنه لا يعرفها.

سألته بعدها عن الحي سيّئ السمعة.. فقال إن وضعه لم يتغير كثيراً بعد الحرب.. فهو معقل للعصابات، والنشالين، وفتيات الليل منذ عقود طويلة.. لكن مع الفوضي، وضعف القانون.. انفلتت الأمور فيه أكثر.

انتهزت الفرصة وسألته عن رأيه في الثورة، وعن موقفه منها.. خصوصاً في البدايات.. فقال إنه كان على وشك التخرج عندما اندلعت.. ولم يتخذ موقفاً محدداً منها.. كان يراقب المشهد مع أقرانه من بعيد، ويحدوه الأمل أن تتحول بلاده إلى دنمارك أخرى.. يسود فيها العدل، ويرتفع الدخل، ويتطور التعليم، وتتحسن الخدمات.. لكن بعد انتكاس الأوضاع أدرك أنها أضغاث أحلام.. وأن جحيم قندهار أقرب إليهم من جنة كوبنهاغن.

بعد أن انتهيتُ من طرح الأسئلة، وتدوين الإجابات، وقبل أن نصل إلى المطار بدقائق قليلة.. التفت نحوي، وسألني عن رأيي

أنا في الثورة.. كمواطن عربي، قبل أن أكون إعلامياً.. فتريثت قليلاً قبل أن أجيب، فأنا أدرك جيداً حساسية السؤال، وحرج الموقف، وحجم المأساة التي خلفتها هذه التجربة المريرة.

أدرك أني غريب.. وأن الأوضاع في هذا البلد لم تستقر بعد.. وأن هذا السائق المهذب قد يكون فقَدَ أعزاء عليه خلال الثورة، والحرب الأهلية التي تلتها.. وأدرك أيضاً أن الإنسان بطبيعته لا يحب أن يستهتر الآخرون بتضحياته، خصوصاً لو كانت المحصلة النهائية صفراً أو تحت الصفر.

وأدرك أيضاً أن المادة الإعلامية التي جمعتها خلال رحلتي هذه ستصل إلى الجمهور في يومٍ من الأيام، وسيطلعون على مضمونها، وعلى الحوارات التي تضمنتها، وسيُخضعون كل ذلك للتقييم والنقد.

فحاولت أن أبحث عن ردٍّ يُوصل إليه الحقيقة.. أو ما أراه أنا على أنه حقيقة.. بألطف صورة ممكنة.. دون أن أجرح مشاعره، أو أستهتر بتضحياته.

فكرت، وفكرت، وفكرت.. ثم استجمعت قواي، وقلت:

الثورة الحقيقية يا صديقي يجب أن تبدأ من داخل الإنسان.. في أعماق عقله وقلبه.

الثورة الحقيقية هي أن نتحمل مسؤولياتنا التاريخية، وألا نرميها على طرف واحد.. ونتظاهر بالبراءة.

الثورة الحقيقية هي أن نعيد التفكير في جميع الأفكار التي ورثناها من أسلافنا، وأن نحافظ على الصحيحة منها، ونتخلص فوراً من الخاطئة.

الثورة الحقيقية هي أن نؤمن بأن الجمال من أهمِّ نعم الله علينا، وأن نسارع إلى تغذيته، والعناية به.

الثورة الحقيقية هي أن ندرك أن الحياة أحق باهتمامنا من الموت، وأن المستقبل أولى باهتمامنا من الماضي.

"هذه هي الركائز الخمس للثورة الحقيقية، ومن دونها لن يتغير شيء" !

مكتبة
t.me/soramnqraa

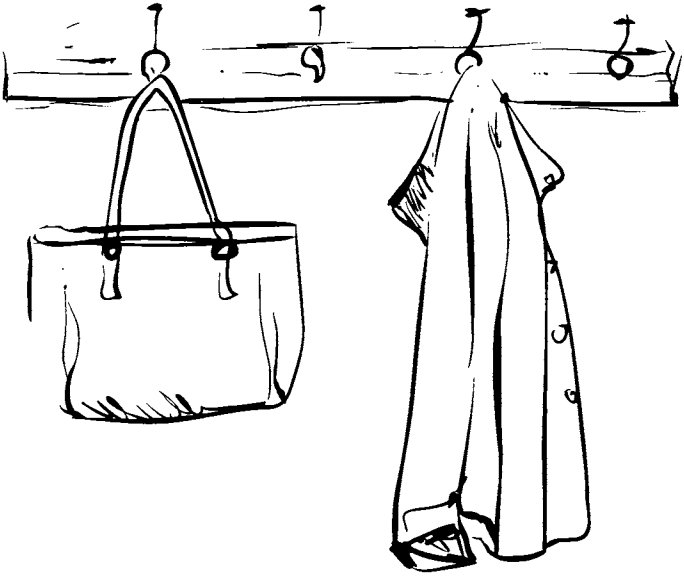

قبل المغادرة

لا تنسوا أفكاركم المُعلّقة خلف الباب..

فكلُّ الآراء الواردة بين طيّات هذه الرواية قابلٌ للخطأ!

ISBN 978-9948-24-671-8